(٩)

الغزالي.. مصلحاً ومجدِّداً

الغزالي.. مصلحاً ومجدِّداً

الغزالي المجدد

روى أبو داود في سننه والحاكم في مستدركه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[1].

وهذا الحديث يحمل بشرى للأمة ــ على امتداد أمصارها وأعصارها ــ بأن دينها سيظل حياً ولن يدركه البلى، بل يتجدد باستمرار بمن يبعثه الله ليقوم بمهمة التجديد.

ولا يعني التجديد للدين تغيير جوهره، فإن التجديد للشيء إعادته أقرب ما يكون إلى يوم نشأته وظهوره. فتجديد الدين إنما يعني تجديد الفهم له والإيمان به، والالتزام بتعاليمه، والدعوة إليه.

وكلمة (مَنْ) في الحديث تصدق على الجمع، كما تصدق على المفرد.

فقد يكون المجدد فرداً، كالخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، أو الإمام الشافعي، أو الإمام الغزالي، وهو ما اتجه إليه الأكثرون في فهم الحديث.

وقد يكون المجدد جماعة متعددة، في قطر واحد، أو جملة أقطار، في

---

(١) انظر: كلامنا عن هذا الحديث وتخريجه وشرحه بتفصيل في كتابنا: (من أجل صحوة راشدة) فصل: تجديد الدين في ضوء السنة.

مجال واحد، أو عدة مجالات، من كل من يقوم على ثُغرة من ثغر الإسلام. وهو ما مال إليه ابن الأثير والذهبي وغيرهما.

وقد يكون المجدد جماعة أو مدرسة أو حركة فكرية أو دعوية أو تربوية أو جهادية، تقوم بدورها في حركة الإيقاظ والإحياء والتجديد، وهو ما أرجحه وأميل إليه.

وهنا لا يكون دور المسلم أن يقول: متى يظهر المجدد؟ بل يكون قوله: ما دوري في حركة التجديد؟

ولا يرتاب راصد لحركة الإسلام ومسار أمته، على رأس القرن الرابع عشر الهجري: أن الشيخ الغزالي أحد أعمدة التجديد الإسلامي الرئيسة في هذا العصر، سواء نظرنا إليه من خلال جهوده الذاتية في الفكر والدعوة، والتوعية والتربية، أم من خلال عمله في الحركة التجديدية الكبرى: حركة الإخوان المسلمين، التي يعد هو أحد أركانها الراسخة، وألسنتها الصادقة.

ولكأنما كان والده الرجل الصالح الشيخ (أحمد السقا) ينظر بنور الله حين ألهم أن يسمي ابنه «محمد الغزالي» تيمناً باسم حجة الإسلام أبي حامد الغزالي صاحب (الإحياء)، فقد كان الرجل رحمه الله ــ كما حكى لنا الشيخ ــ ذا نزعة صوفية، وكان أمله منذ رزق بطفله أن يكون وارثاً للغزالي فسماه هذا الاسم المركب (محمد الغزالي)، فالغزالي جزء من اسم الشيخ وليس لقباً لعائلته، كما يتوهم بعض الناس.

ولم تخيب الأقدار ظن الوالد الطيب، فإذا (غزالي القرن الرابع عشر) يحمل روح (غزالي القرن الخامس) في إحياء الدين وتجديده، وبعث الحياة في جسد الأمة الهامد، على أساس من تعاليمه، وإن كان في كل من (الغزاليَّيْن) ما ليس في الآخر، وقد يوجد في المفضول ما لا يوجد في الفاضل، والله يهب من فضله ما يشاء لمن يشاء (والله ذو الفضل العظيم).

مصلح على مستوى الأمة

الشيخ الغزالي وإن كان رجل دعوة في المقام الأول، هو كذلك رجل من رجالات التجديد والإصلاح الذين شغلوا بهموم المجتمع من حولهم، وما تعانيه أمتهم من اختلال في الأوضاع والأنظمة، ومن فساد في الأفكار والأخلاق، ومن عوج شمل الماديات والمعنويات، والأفراد والجماعات، فلم يسلم منه الدين ولا السياسة، ولا الثقافة ولا الاقتصاد، ولا أي جانب من جوانب المجتمع.

ولم يكن الغزالي مصلحاً مصرياً، وإن كانت مصر تأخذ الحظ الأول في تفكيره واهتمامه، ولا مصلحاً عربياً وإن كانت العروبة وعاء الإسلام، والعربية لسانه، والعرب جملة دعوته، ولكنه مصلح على مستوى الأمة الإسلامية كلها، من المحيط إلى المحيط، فهو يتحدث عن مأساة المسلمين في الحبشة، كما يتحدث عن نكبتهم في البوسنة، وعن أوضاعهم في أندونيسياً كأوضاعهم في المغرب.

عناصر الإصلاح عند الغزالي

والإصلاح الذي يؤمن به الغزالي ويدعو إليه في كتبه ومقالاته وفي خطبه ومحاضراته، يقوم على جملة عناصر:

١ ــ تزكية الأنفس:

العنصر الأول في الإصلاح هو: الدعوة إلى تجديد الإيمان بالله ورسالاته، وتعميق اليقين بالدار الآخرة، وتزكية الأنفس وإصلاحها في ضوء هداية الوحي: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

وقانون القرآن أن التغيير يبدأ بما في الأنفس أولاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وهذا العنصر مقدم على كل عناصر الإصلاح.

٢ ــ العدل الاجتماعي:

الدعوة إلى العدل الاجتماعي، والانتصار للطبقات المسحوقة التي تعرق في الزرع وينعم غيرها بالحصاد، والوقوف في وجه التوزيع الظالم للثروة، وتمكين الأغنياء من امتصاص دماء الفقراء، وتسليط الأقوياء على أكل حقوق الضعفاء.

وقد تجلى ذلك ــ منذ زمن مبكر ــ في كتبه الأولى: (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) و(الإسلام والمناهج الإشتراكية) و(الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين).

٣ ــ مقاومة الاستبداد السياسي:

مقاومة الإستبداد والتسلط السياسي، وحكم الفراعنة والهوامين، الذين علوا في الأرض، وجعلوا أهلها شيعاً، وتألهوا في الأرض فعلاً، وإن لم يعلنوها قولاً، فاتخذوا من عباد الله عبيداً لهم، فهو ينتصر لحرية الجماهير، وترسيخ الشورى، واعتبارها فريضة لا مجرد فضيلة، وملزمة لا مجرد معلمة، والاقتباس من النظم الحديثة ــ كالديمقراطية ــ ما يدعم هذا المبدأ، ويجعله قابلاً للتطبيق العملي في حياتنا المعاصرة.

لهذا كان من أوائل كتبه: (الإسلام والاستبداد السياسي) وهو ــ كما ذكرت من قبل ــ محاضرات ألقاها في معتقل الطور على المعتقلين.

وكان تنديده بمن يقول: إن الشورى للإعلام لا للإلزام.

٤ ــ تحرير المرأة من التقاليد الموروثة الدخيلة:

تحرير المرأة من نير التقاليد الشرقية الموروثة، التي فرضتها أفهام سقيمة، أو أوضاع مختلة، في فترات الهُويّ والتراجع من تاريخنا، والتي يحسبها كثيرون من الدين وما هي منه في قليل ولا كثير. وتحريرها كذلك من رق التقاليد الوافدة، التي غزتنا مع الاستعمار المستكبر، فسلخت المرأة المسلمة من دينها وشرع ربها، وغيرت من فكرها وخلقها وسلوكها، فأصبحت امرأة أخرى، ولا يكاد يبقى لها من الإسلام إلا الإسم والشهادتان.

لقد ظلم المسلمون المرأة في الأعصر الأخيرة حتى حرّموا عليها الذهاب إلى المسجد.

وقد تجلى هذا العنصر الإصلاحي في كثير جداً مما كتبه الشيخ، ابتداء من كتابه: (من هنا نعلم) إلى كتاب: (السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث)، ثم كتاب: (المرأة بين التعاليم والتقاليد).

٥ ــ محاربة التدين المغلوط:

محاربة التدين المغلوط، والتطرف الممقوت في فهم الدين، والرجوع به إلى اليسر والاعتدال، بعيداً عن غلو الغالين، وتفريط المفرطين. وهو توجه بدأه من قديم، ولكنه ركز عليه في المرحلة الأخيرة، منذ اصطدم بالغلاة والحرفيين، والمتزمّتين ــ وقد سمَّيتهم (الظاهرية الجدد) ــ في أثناء عمله الدعوى في مصر، وفي خارج مصر، في المملكة العربية السعودية، وفي دولة قطر، وفي جمهورية الجزائر.

نجد ذلك واضحاً في كتبه: (دستور الوحدة الثقافية للمسلمين) و (مشكلات في طريق الحياة الإسلامية) و (الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر) و (هموم داعية) و (علل وأدوية) و (الطريق من هنا) و (مستقبل الإسلام خارج أرضه) و (الغزو الثقافي يمتد في فراغنا) و (الحق المر) و (السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث) وغيرها..

وربما أخذ بعض الغيورين على الشيخ حدة نبرته في نقده لهؤلاء، وتنديده بسوء فهمهم للإسلام، وسوء عرضهم له، وربما كان هذا صحيحاً، والشيخ يعترف به، ولكن هذا راجع إلى تطاول كثير من هؤلاء على الشيخ وعلى غيره ممن خالفهم، ودعاويهم العريضة ضد دعاة الإسلام، ممن لا يوافق مشربهم.

ويدخل في هذا العنصر: النظرة الشمولية التكاملية والتوازنية للإسلام، في مقابل النظرات التجزيئية، والتي تضخم جانباً على حساب جانب، ويمكن أن يكون هذا عنصراً مستقلاً.

٦ ــ تحرير الأمة وتوحيدها:

تحرير الأمة الإسلامية من كل سلطان أجنبي فرض عليها في غفلة من الزمن، وتتابع من المحن، سواء كان عسكرياً، أم سياسياً، أم اقتصادياً، أم تشريعياً، أم ثقافياً، أم اجتماعياً، والعمل على توحيد الأمة، وإزالة العوائق التي تفرق بين أبنائها.

٧ ــ الدعوة إلى التقدم، ومحاربة التخلف:

الدعوة إلى التقدم، ومحاربة التخلف، واللحاق بموكب العالم المتطور عن طريق التفوق في علوم الكون والرياضيات، واستخدام التكنولوجيا، وحسن الإدارة والتنظيم، والانتفاع بأقصى ما عند الغربيين في هذه الجوانب، واجتناب النواحي السلبية في أخلاقياتهم وسلوكياتهم، كإعراضهم عن الله واليوم الآخر، والتحلل الجنسي، وتجنيد طاقات الأمة تحت راية الإيمان للعمل والإنتاج من أجل التقدم، واعتبار ذلك لوناً من العبادة لله تعالى، وضرباً من الجهاد في سبيله.

شاعت هذه الدعوة على لسان الشيخ، وسال بها قلمه في كتب ومقالات، لا يكاد يخلو منها كتاب، ثم أفردها بالبحث والمناقشة في كتابه: (سر تأخر العرب والمسلمين).

٨ ــ تنقية الثقافة الإسلامية:

تنقية الثقافة الإسلامية مما علق بها من أوشاب وزوائد خلال العصور، ومطاردة الأباطيل والأوهام التي أدخلت على العالم الإسلامي، وهي دخيلة عليه غريبة عنه، ومقاومة (الشائعات) التي تلصق بالعلم وليست منه، وللشيخ هنا كلام طويل من التعليم الأصلي، وعن الأزهر والجامعات الإسلامية، وعن الأغذية المسمومة التي يزود بها الدعاة والمعلمون الدينيون. ومن كتبه المستقلة في هذا: (تراثنا بين الشرع والعقل).

٩ ــ ترشيد الصحوة:

ترشيد الصحوة الإسلامية المعاصرة، والعمل الدؤوب على تسديد مسارها، وتجنيبها الزلل والعثار، وتجميع صفوفها على الأهداف الإسلامية الكبرى، وترك

معارك الخلاف على الفروع والجزئيات التي يستحيل أن يتفق الناس عليها.

وهذا العنصر في الإصلاح: امتداد لعنصر مقاومة التدين المغلوط، وتعميق وتطبيق له.

١٠ ــ العناية باللغة العربية:

العناية باللغة العربية، والأدب العربي، ومحاربة النزعات التخريبية التي تريد تقويض اللغة والأدب والشعر باسم الحداثة.

ولا بأس أن نتحدث عن هذه العناصر بشيء من التفصيل.

وأود قبل أن أفضل الحديث عن جوانب الإصلاح عند الشيخ، أن ألمح إلى شيء من طريقته في تشخيص الأدواء، ووصف الأدوية لها، كما أشار إليها في مقدمة كتابه: (علل وأدوية)، يقول سدد الله خطاه:

«إنني عندما أكتب أُقسِّم مشاعري وأفكاري قسمين: قسماً يتعرف الواقع الإسلامي بدقة، أعني أحوال أمتنا ما ظهر منها وما بطن.. وآخر يتلمَّس من توجيهات الإسلام ما يشفي السِّقام ويدعَم الكيان..

وفي تعرُّفي على أحوال أمتنا أميز الأمراض الموروثة عن الوافدة حتى لا أضل العلاج، ولا أسمح للأعراض المتشابهة أن تخدعني عن جراثيمها المختلفة!

وفي تلمُّسي للأدوية أُفرق بين الإسلام من مصادره المعصومة وبين تاريخه المتفاوت بين مد وجزر، سواء كان هذا التاريخ سياسياً أو ثقافيّاً»[1].

---

(١) من مقدمة كتاب علل وأدوية.

١ـ تجديد الإيمان وتزكية الأنفس

أما عنصر الإصلاح الأول، وهو الدعوة إلى الإيمان وتزكية الأنفس، فهو شائع في كل كتب الشيخ وخطبه ومحاضراته، وهو واع كل الوعي أنه الهدف الأساسي للدين كله من ناحية، وأنه شرط ضروري لنجاح أي إصلاح حقيقي.

وفي مقدمة كتابه: (علل وأدوية) ذكر الآية الكريمة: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٢٣] لما تضمنه من معنى شريف، يصحح للإنسان هدفه، ويضبط خطاه ويقيه الزيغ والعثار.

يقول الشيخ:

«نحن ننشد إقامة الشرائع التي تقينا السيئات، وترهب المجرمين، ولكنها ـ قبل ذلك ـ تقيم العقائد التي تربط الناس بالله عزَّ وجلّ، وتجعل تعاملهم معه، وخوفهم منه، وأملهم فيه.

إن كثرة الحديث عن الآخرة والجنة والنار لم يكن من قبيل اللغو، وكثرة الحديث عن التقوى وما تورثه في القلب من استقرار، وما تلقيه في الطريق من نور، ليس من قبيل الخيال.

لقد استيقنت أنه لا يقتل الغرور والشره، وحب النفس وحب الظهور، والمكاثرة بالمال والجاه... إلا الإيمان الحي والتعلق الشديد بما عند الله تبارك وتعالى.

لقد رأيت من طغى عندما حكم، ومن غش عندما تعامل، ومن استكبر عندما استغنى، ومن أفسد أسرته وأمته عندما تمهد له الطريق.

وتأملت الدوافع إلى هذا كله، فلم أر إلا قلوباً خالية من الله عز وجل، بعيدة عن الشعور بعظمته ورقابته! وإن همهمت بكلمات محفوظة عن الدين والوحي!

وأؤكد أنه عند فساد الفطرة لا يوجد دين، وعند اختلال العقل أو نقصانه لا يفهم وحي! وأن الأوامر الجزئية المتناثرة المنفصلة عن روح جامع لا تكون سلوكاً، كما أن اللبنات المركومة وأسياخ الحديد الملقاة لا تنشىء بيتاً...

إن تعليمات المرور لا تفيد من أصيب بانفصال في الشبكية، أو من أصيب في صمامات القلب.

ولقد قام نبينا ﷺ حضارة حققت الغاية من الوجود الإنساني، وكانت عدته في ذلك ما تلقى من وحي، وما ألهم من هدي.

وكان أقدر المستقدمين والمستأخرين على تصحيح المسار الإنساني عن طريق ضبط الأجهزة الرئيسية في الكيان الإنساني.

ونحن في هذا النهج نسير، وبمواريث النبوة نستهدي»[1].

يريد الشيخ للمسليمن أن يحسنوا فهم الدين، ويحسنوا فهم الحياة أيضاً، فلا قيام لدين بغير دنيا تسنده وتقويه.

وهو ينكر سرد الأحاديث والآثار الواردة في الترهيب في الدنيا، والترغيب في الفقر وقلة ذات اليد، وفضل الفقراء والمساكين.. إلخ.. سرداً يجعل المسلمين يطلقون الدنيا، في حين يتزوجها غيرهم.

وهو يقول هنا: «أنا رجل مسلم أعلم أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، وأعلم أن تداعي الأمم علينا سببه: حب الدنيا وكراهية الموت.

---

(١) من مقدمة كتاب علل وأدوية، نشر إدارة إحياء التراث الإسلامي في قطر.

إنني أريد أن أفهم المؤمنين أن الحياة في سبيل الله ــ كالموت في سبيل الله ــ جهاد مبرور، وأن الفشل في كسب الدنيا يستتبع الفشل في نصرة الدين! وأن الواجد الذي ينزل عما عنده خير من المفلس الذي لا ينزل عن شيء؛ لأنه لا يملك أي شيء!

إن السلبية لا تخلق بطولة؛ لأن البطولة عطاء واسع، ومعاناة أشد»[1].

الحاجة إلى تصوف نقي[2]

وشعور مفكرنا الكبير بحاجة الأنفس إلى تزكية وإصلاح، هو الذي جعله في أكثر من كتاب له، يدعو إلى الاستفادة من التصوف، في كشف عيوب النفس، ومداخل الشيطان إليها، ووصل القلوب بحب الله عز وجل، وترطيب الألسنة بذكره.

والتراث الصوفي يفيد هنا ما لايفيد غيره، إذا غربل ونقي من الخرافة في الفكر، والابتداع في العبادة، والسلبية في التربية والسلوك.

وقد كان الشيخ شديداً على التصوف والمتصوفة في كتاباته الأولى، ثم بعد التجربة والنصح وجد أنه ضروري لإنشاء الضمير الحي، والقلب المؤمن بالله، المتوكل عليه، الخائف من عذابه الراجي لرحمته. وخصوصاً بعد أن أتاحت له فرصة الاعتقال في الطور قراءة (مدارج السالكين) لابن القيم دراسة منتظمة مع بعض إخوانه.

يقول الشيخ تحت عنوان: (التصوف الذي نريد):

«مع قيام الإسلام على العقل، وترحابه بالفكر الجيد والبحث الأصيل، وحضه على الارتباط المادي والمعنوي بالكون عملاً وتأملاً، مع ذلك كله فهو دين

---

(١) علل وأدوية: ص ٢٣٠.

(٢) ليكن اسمه تصوفاً أو جانباً عاطفياً أو وجدانياً، المهم ألا يخالف الكتاب والسنة، وألا يطغى على توازنية الإسلام، ولا مشاحة في الاصطلاح. (ع.ع).

يعقد أوثق العلاقات بالقلب اليقظان والمشاعر الجيّاشة، ويجعل الإيمان عاطفة دافقة بالحب والبر إلى جانب أنه نظر يتسم بالسداد والصواب. . .

والإسلام المكتمل ليس «نظرية» علمية، أو اقتصادية، وليس فكرة مجردة عن الله، مهما كانت هذه الفكرة صحيحة من حيث التصوُّر والاستدلال. إنه قلب انفتحت أقفاله، وانفسحت أرجاؤه، وأشرق معنى الحب في جوانبه، فهو متعلق بربه، متتبع لآثاره في كونه عاشق للخير مبغض للشر، يمتد مع كل شيء حسن، وينكمش مع كل شيء قبيح.

وقد خاطب الله المؤمنين من أصحاب محمد فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

ومن المتعذر الفصل بين الاستنارة الفكرية والهداية النفسية.

نعم يوجد ناس لهم عقول ذكية وسير هابطة، ولا نشك في أن هؤلاء مرضى.

والأدواء التي أصيبوا بها متفاوتة الشناعة والسوء.

والمفروض أن من يعرف خصائص النار يتحاشى ملامستها، غير أننا نلحظ أن بعض الناس قد يعرف شيئاً ما معرفة حسنة، ثم يجيء تصرفه وكأنه جاهل كل الجهل.

وهذا التناقض ضرب من الجنون الذي يُرى في كل مكان، ولا يودع أصحابه مستشفيات المجانين! . .

إن الأمراض التي تعتري الشخصية الإنسانية كثيرة جداً.

وهذا الجنون الجزئي هو ما أشار إليه القرآن الكريم في تقريعه للأشرار من العلماء: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٤٤﴾ [البقرة: ٤٤].

نعم، فالمفروض أن صحة التفكير تستتبع صحة التصرف!

لكن هذه البديهية عندما تنتقل إلى عالم التطبيق يعترضها من العوائق، ما يعترض التيار الكهربائي عندما ينقطع السلك الحامل له، أو عندما توجد مواد عازلة تمنعه من الإنطلاق إلى مداه.

والدين الحق شفاء من هذه العلل جمعاء، فهو عقل مستقيم وضمير حي.

أما الثروة الطائلة من النظريات والفقر المدقع في المشاعر النبيلة والاتجاهات الكريمة فليس تديُّناً مقبولاً...

والسؤال الذي نريد الإجابة عليه: كيف نحقق هذا التدين؟

وكيف نرى في القلوب الإحساس بجلال الله والخشوع لعظمته؟

كيف نجعل اليقين ينزل من السطح ليشتبك بالأعماق؟

كيف نحوّل معرفة الله إلى مذاق حلو يطبع النفوس على الرقة، ويصفي السرائر من كدرها؟

كيف نجعل المرء مشتاقاً إلى ربه، فهو ببواعث من أشواقه يطيعه ويسارع إلى مرضاته... وكيف نجعله هيَّاباً لذاته، فهو بدوافع القلق ينفر من معصيته ويفزع من مساخطه...

كيف يشهد المرء ربه في مجالي السمٰوات والأرض، ويشهد أسماءه الحسنى فيما يقع من حركة وسكون على امتداد الزمان والمكان؟

إنه لايتم إيمان، ولا يثمر دين إلا إذا أحسنا الإجابة على هذا التساؤل.

ونحن نعرف أن العلوم الشرعية تعاونت على شرح رسالة الإسلام وتوقيف الناس على حدوده وحقائقه، فأي العلوم أكثرت بهذه الأسئلة وطال نَفسه في الحديث عنها؟

إنني لست متصوفاً، وما أحب أن أنتسب إلى فرقة من فرق المسلمين.

بيد أن الإنصاف يدفعني إلى القول بأن هذا الجانب المهم من الثقافة الإسلامية اللازمة لم يلقَ العناية المستحقة لدى جمهرة الفقهاء والمتكليمن، وأن المتصوفة ــ برغم شطحاتهم وغلطاتهم ــ هم الذين أفاضوا في هذا الحديث.

إن فقهاءنا الذين كتبوا المجلدات في غسل الأطراف ما كان يعيبهم أن يتناولوا هذا الجانب وأن يضبطوه بأدلتهم الفقهية.

وإن المتكلمين الذين عقدوا الفصول الخطيرة في الشؤون الإلٰهية المغيبة ما كان يعيبهم أن يحببوا الناس في الله ويرفعوهم إلى حضرته، بأسلوب علمي محكم.

لقد كان ذلك ــ والله ــ أجدى على الإسلام وأهله، من بحوثهم العقيمة في الذات والصفات.

إن العناوين لا تهمني، وإنما يهمني الموضوع، يهمني أن أرسم الطريق لبناء النفوس على التقوى، وإيناسها في هذه الدنيا بذكر الله، وإلهامها كيف تستعد للقيادة، ببصيرة مجلوة، ورغبة عميقة، وثغر باسم»[1].

---

(١) ركائز الإيمان بين العقل والقلب: ص ١٣١ ــ ١٣٤.

٢ ـ العدل الاجتماعي

كان (الظلم الإجتماعي) أول ما لفت نظر الشيخ الغزالي، وشغل قلبه وفكره، فقد نشأ في بيئة رأى منها آثار هذا الظلم صارخة. حيث الإقطاعيات، وتفاتيش الخاصة الملكية، تتحكم في الفلاحين الكادحين، تحكم السادة في العبيد. وشاهد الكروش المنتفخة، وهي تسمن وتسمن على لحوم المهزولين المتعبين.

لاحظ الشيخ الأولاد الصغار تستخدمهم الدوائر الزراعية في تنقية الزروع ــ وبخاصة القطن ــ من أسراب الدود المهاجم لها، وفي جنيها أيضاً. فتستوردهم من القرى الفقيرة ــ عمال التراحيل ــ وتشتري عرقهم وجهدهم وغربتهم بأبخس الأثمان! ومع هذا لا تصل هذه الأجور إلى مستحقيها كاملة، فإن السماسرة يفرضون عليها ضرائبهم، ويسرقون منها ما يمكن الاستيلاء عليه، وهذا حرام لا شك فيه.

يقول الشيخ: «فهل تدري مكاتب العمل الحكومية شيئاً عن هذه الأحوال؟ إن هؤلاء الأولاد يقضون أيام عمهلم ولياليها، يطعمون شر مطعم، ويبيتون شر مبيت، ثم يعودون إلى قراهم المتلهفة لمقدمهم، وقد نال منهم الإعياء، وأصبحوا فريسة سهلة للأمراض المتوطنة، أو للعلل الوافدة. ولولا إلحاح الحاجة، وعض الفقر، ما فرط الآباء في فلذات أكبادهم بهذا الهوان!

وإلى جانب هؤلاء الأطفال المطالبين بالتكسب منذ نعومة أظفارهم ــ وما

أرى أظفارهم إلا خشنة من ساعة الميلاد! ــ يوجد صنف آخر من الفلاحين، هم سكان العزب والقرى التي سقطت بما فيها ومن فيها، بين مخالب أصحاب الإقطاعيات الشاسعة، كما تسقط البلاد المهزومة في أيدي الجيوش الغازية! وهؤلاء يجدون معايشهم المحدودة منتظمة بنوع انتظام ما داموا قادرين على خدمة الأرض وسادتها. . والويل لهم إن أصابهم مرض. لقد اضطرب مستقبلهم، وخيبت آمالهم. فهم في بيوت لا يملكونها، وفي زراعة لا يملكونها، ووراء حيوانات لا يملكونها. ومعنى عجزهم عن العمل أن يخرجوا هم وأولادهم ونساؤهم، ويتركوا خلفهم هذا كله لرب الأرض المحظوظ!! وما من ذي نعمة من هؤلاء الملاك البطرين إلا والفلاح التعس رب نعمته، ومصدر ثروته، ومتكأ وجاهته، غير أن الفلاح محروم من هذا الذي صنعت يداه، وهو منه قريب، كما تحرم الإبل في الصحراء من الماء محمولاً على ظهورها، وهي تكاد تهلك عطشاً!

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول!

وثم صنف آخر من الفلاحين هم مستأجرو الأرض من ملاكها الصغار أو الكبار، والظاهرة الفذة: أن هذه الإيجارات قلما تنتهي بخير إلى جانب الرجل المرهق فيها. فإما عاش المستأجر من غلتها كفافاً لا له ولا عليه. وإما استدان للوفاء بحقوقها المربوطة بعنقه، وربما باع فيها بعض أملاكه الشخصية، بعد مآس تشهدها المحاكم ومحاضر الحجز، ويتوسط فيها أهل الخير الشر»[1].

لقد رأى الشيخ من النقائض التي تقع في مصر وأشباهها من البلاد المنكوبة بالمظالم الاجتماعية والسياسية: أن هناك أقواماً يعملون كثيراً ولا يملكون شيئاً قط، وأقواماً يملكون كثيراً ولا يعملون شيئاً قط! وربما وجدت الرجل يقضي العمر الطويل يحول الطين ورواداً ورياحين، ويشقى هو وأولاده أجمعون، ليخرجوا

(١) انظر: الإسلام والمناهج الاشتراكية، ص ١٥٩ ــ ١٦٢، ط ثانية، دار الكتاب العربي بمصر.

المخبوء من تربة هذه الأرض، فيمزجون دمهم ببقلها وفومها وعدسها وبصلها، ويحرمون منه! والعلة في هذه النقائض: أن هذا ورث، وهذا لم يرث! وقد علمت كيف بدأت هذه الموروثات وكيف آلت إلى أصحابها[1].

كان الغزالي بقلبه ومشاعره وعقله مع الطبقات الكادحة. إنها أحب الطبقات إلى الله، وأحقها بالحياة الكريمة، وأجدرها بالمستقبل الباسم.. احتفى بها الإسلام وعمل على توسيع دائرتها، حتى تشمل الناس قاطبة. فلا يبقى فيهم عاطل. واعتبر الأنبياء عمالاً يأكلون من كسب أيديهم، وجعل شرار الناس أولئك القاعدين من غير عمل، والطاعمين من غير جهد، الناعمين من غير حق، المشتغلين بالثرثرة لتضييع الفراغ.

لا عجب أن كان أول ما خط قلم الغزالي عن (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) و(الإسلام والمناهج الإشتراكية) و(الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين).

ريادة الشيخ في الكتابة الاقتصادية في الإسلام

كان الشيخ في العقد الثالث من عمره عندما بدأ الكتابة في هذا الجانب البكر، وكان فيه رائداً بحق. ولهذا نجد كتاباته أشبه بصيحات توقظ النيام، ومشاعل تضيء الطريق للسائرين أو السارين في الظلام. فإن كان ينقصها المنهجية أو العلمية (الأكاديمية) فلم ينقصها النظر السليم، والفكر القويم، والفقه المستقيم: الفقه لدين الله ودنيا الناس معاً.

وقد عبر الشيخ عن ذلك في بعض كتبه، معلناً عن عذره في هذا اللون من الكتابة. وذلك في كتابه: (قذائف الحق) يقول حفظه الله:

«في مواجهة التيارات الفكرية الهاجمة علينا أصدرت عدة مؤلفات تتحدث

---

(١) سنعرض من رأي الغزالي فيما حدث للملكية في مصر في فصل (الغزالي والفقه).

عن النظام الاقتصادي الإسلامي، كما تصورته من كتاب الله وسنة رسوله وتطبيقات الخلافة الراشدة، وكان يغلب عليّ ــ وأنا أقدم هذا التصور ــ أمران:

١ ــ اطلاع المثقفين المعاصرين من خريجي المعاهد المدنية على الجوانب المضيئة من تراثنا، والمغنية عما سواها، حتى يكون تعلقهم بدينهم لا بغيره.

٢ ــ ثم الإزدراء على الأوضاع المعوجة السائدة، ورفض السناد الديني الذي تنتحله لنفسها.

وأعترف بأني تجوزت في التعبير أحياناً، وقبلت بعض العناوين الشائعة «كالديمقراطية» في ميدان الحكم، و«الاشتراكية» في ميدان الاقتصاد، لا لإعجابي بهذه العناوين، ولكن لأجعل منها جسراً يعبر عنه الكثيرون إلى الإسلام نفسه، أي أني أريد نقل «الديمقراطيين» و«الإشتراكيين» إلى الإسلام بعدما أوضحته وأبرزت معالمه، لا أني أريد صبغ الإسلام بصبغة أجنبية، أو نقله إلى مذاهب مستوردة...

وقد جاء من بعدي الأستاذان «سيد قطب» و«مصطفى السباعي» ــ عليهما رحمة الله ــ فألف الأول «العدالة الإجتماعية في الإسلام» وألف الأخير «اشتراكية الإسلام»، وهما يقصدان ما قصدت إليه من رد المفتونين بالمبادىء الجديدة إلى مواريث أسمى وأغنى..

وربما كان ما كتباه أفضل مما كتبته أنا وأكثر تنظيماً.

وعذري أنني كنت رائداً تدمى أظافري في الإكتشاف والتدوين، فإذا جاء من بعدي ووجد حقائق ممهدة كان على تنسيقها أقدر وعلى صوغها أدق!!»[1].

ويحسن بنا أن ننقل هنا بعض هذه النظرات المبكرة للشيخ، الدالة على مبلغ وعيه بهذه القضية الكبيرة، وكيف ينبغي أن تعالج من صيدلية الإسلام. وقد ذكرنا شيئاً من ذلك في الفصل الماضي (الغزالي والفقه).

---

(١) قذائف الحق: ص ١٥٧، الطبعة الرابعة.

حق الناس في المال

تحت عنوان: (حق الإنسان في المال) كتب الشيخ يقول:

«لا يجوز أن يبقى رجل من غير دخل ــ قليل أو كثير ــ يكفل له المستوى الواجب لمعيشته، وعلى المجتمع الديِّن أن ينظم أموره تنظيماً يؤدي إلى هذه النتيجة المحتومة، وإلا كان مجتمعاً لا دين له، وفي ذلك يقول الرسول: «أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى». وقد أفتى ابن حزم وغيره من العلماء، بأنه إذا مات رجل جوعاً في بلد اعتبر أهله قتلة، وأخذت منهم دية القتيل! وقد اعتبر القرآن أنه من التكذيب بالدين أن تدع اليتيم، وألا تحض على طعام المسكين، فكيف يكون رأي القرآن في بلاد لا تحض على طعام المسكين فقط بل هي تصنع الفقر والمسكنة، وتخرج إلى المجتمع الإنساني ألوف الفقراء والمساكين، فكأن أنظمتها الاقتصادية آلات جبارة تصوغ البؤس في قوالب من أبناء آدم. ثم ترمي بهم على أفاريز الطرق وفي خرائب الأبنية أو بين جدران السجون والملاجىء والمستشفيات!

هل نسمي هذا إلا أنه كفر بالدين، وإنكار لنصوصه وقواعده ومبادئه؟ بلى، وأصحاب هذه النظم هم أصحاب الميسرة[1] في الدار الآخرة ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٢٥ ــ ٣٤].

والمال الذي يكفي لإذهاب العيلة واستئصال الحرمان وإشاعة فضل الله على عباده يجب إخراجه ــ مهما عظم ــ من ثروات الأغنياء ولو تجاوز تجاوزاً بعيداً مقادير الزكاة المفروضة فمقادير الزكاة ليست إلا الحد الأدنى لما يجب إنفاقه، وقد ورد عن النبي: «إن في المال حقاً غير الزكاة».

---

(١) أحزاب الميسرة الآن هم المعروفون بالميول الاشتراكية.

ولنا كلام يأتي بعد في أنصبة الزكاة التي فرضها الشارع. غير أننا نلفت النظر إلى أن الزكاة في صدر الإسلام، لم تكن المصدر الوحيد، الذي رصد لمحاربة الفقر واستئصال شأفته. فقد كانت أموال الفيء والغنائم والخراج مصادر أخرى غزيرة النفع، تعمل عملها الواسع في تفريج الضوائق وسد حاجات اليتامى والمساكين والمعوزين. فإذا جفت بعض المنابع كان على المنابع الباقية أن تحمل العبء كاملاً، وعلى الدولة أن تستنبط من موارد المال، ما توازن به شؤون المجتمع وتقيم به مصالح الناس. والدين لها في كل ذلك ظهير.

وإذا كانت الغاية التي شرعت من أجلها الزكاة هي تحرير الفقراء من قيود الفاقة وإطلاق إنسانيتهم من إسارها الحالك، فلنحقق هذه الغاية كاملة ولنحمل ما تفرضه علينا من تكاليف قليلة أو كثيرة! لكن إبقاء كثير من الناس صرعى للفقر والمسكنة كان ــ والحق يقال ــ هدف أكثر الحكومات المتتابعة في العصور السابقة واللاحقة. إذ أن تجويع الجماهير بعض الدعائم التي تقوم عليها سياسة الظلم والظلام، ومن هنا انتشر الفقر انتشاراً ذريعاً في الشرق الإسلامي، وسخر الدين ورجاله لحمل الناس على قبوله، واستساغته، وفسرت نصوص الدين المتصلة بهذا المعنى تفسيراً سقيماً نسي الناس معه حقوقهم، وحياتهم وجعلوا دنياهم وأخراهم، وحسبوا الفقر في الدنيا سبيلاً إلى الغنى في الآخرة كما أسلفنا القول. ونحن لا ننكر أن هناك آثاراً دينية تحمد الفقر وتنوه بشأنه، ولكن ما دلالة هذا وما معناه؟ هل كما قال الشاعر:

جـــزى الله الشـــدائـــد كـــل خيـــر عـــرفـــت بهـــا عـــدوي مـــن صـــديقـــي

قلنا: إن الشدائد خير... وألفنا مصلحة أو وزارة نسميها وزارة الشدائد، لتذيق الناس لباس الجوع والخوف!! وإذا قال القرآن الكريم في وصف حديث الإفك الذي طعن به شرف السيدة عائشة ــ صانها الله وكرمها ــ : ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١]، قلنا: إن الإفك خير وألفنا جماعة لترويج الزور ورمي الناس به، وتصبير الناس عليه!! وإذا وقعنا على حديث للنبي ﷺ يمدح

الفقر على النحو الذي عزيت به السيدة المتهمة بالإفك؛ وجدنا من المتدينين من يؤلف طوائف من المتسكعين والمتبطلين ليعيشوا في الدنيا فقراء بائسين!!»[1].

منهج الدين

وتحت عنوان (منهج الدين) يعني الإسلام، كتب الغزالي يقول:

«الإسلام ــ كدين له تعبيرات وتوجيهات خاصة، تمتاز بطابعها الذي يقرن التجارة بالخُلُق، والأعمال بالعقيدة، والعقوبات الزاجرة في الدنيا بالأجزية المعدة في الآخرة. ولا يستغرب منه أن يلجأ إلى وسائل التربية النفسية أولاً، ثم إلى الأحكام التشريعية ثانياً، ليصل إلى أغراضه الواضحة. فإن كان في أحكامه إجمال، فعلى الحاكم أن يضع لها من التفاصيل ما يصل بها إلى الأغراض المرسومة المعلومة. ومنهج الدين في محاربة الربا والاحتكار والاستغلال بيِّن. فإذا لجأ إلى مكافحة هذه الآفات بالوعيد واللعن فليست هذه وسائله الأولى والأخيرة.

إن الإسلام يبغي أن ينقّي المجتمع من هذه الشوائب، وقد ظهر أن الإملاق إلى جانب الترف يولّدان الربا، وأن موارد الإنتاج المهملة إلى جانب الطبقات المستهلكة المضيَّعة تلد حتماً شركات الاحتكار المستغلة، وضنك المعايش المذلة.

ومن رعى غنماً في أرض مسبعة ونام عنها تولى رعيها الأسد!

وهذه وتلك لا تعيش إلا في ظلال الاقتصاد الرأسمالي، والتقسيم الإقطاعي، والاستعمار الداخلي والخارجي. وهل تنشب الحروب في العالم إلا لهذه الأسباب وما ينشأ عنها من أطماع؟ وهل يشيع الاضطراب والاحتراب إلا من تقاتل

---

(١) الإسلام والأوضاع الاقتصادية: ص ٨٩ ــ ٩١، الطبعة الثانية ١٩٥١، دار الكتاب العربي بمصر.

الرأسماليين على استغلال الضعفاء وانتهاب ما بأيديهم من خيرات؟ أفتبقى الدوافع إلى الحروب بهذه الشدة لو وقر في الأذهان أن كل إنسان على ظهر الأرض يجب أن تكفل حقوقه المادية والمعنوية، ثم ينتهي من تاريخ البشرية إلى غير رجعة طور الربا والإحتكار والإستغلال؟

إن الإسلام من هذه الناحية قد قال كلمته، وأعلن دعوته، وأنصف الناس من أنفسهم، ومن البرامج التي توضع لهم، وذكر تاريخ الأولين لما ارتكبوا هذه المظالم لتكون منه عظة للآخرين»[1] ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١].

(١) الإسلام والمناهج الاشتراكية، الطبعة الثانية ١٩٥١م، دار الكتاب العربي بمصر.

٣ ـ الحرية ومقاومة الاستبداد السياسي

الغزالي والحرية

الشيخ الغزالي من عشاق الحرية ودعاته، وهي من العناصر الأساسية في برنامجه الإصلاحي، وهو عدو الاستبداد، أياً كانت صورته، ولا يقبله بحال، ولو تسربل باسم الدين. بل يرى أن الاستبداد باسم الدين أشد خطراً من غيره.

من أجل ذلك قسا على بعض مراحل التاريخ الإسلامي، حين رأى الشورى معطلة، والخلافة تنتقل بحكم الوراثة إلى سفيه أو صبي لم يبلغ الحلم.

وحين قرأ في كتاب: (العواصم من القواصم) للإمام أبي بكر بن العربي، أن البيعة تنعقد باثنين أو بواحد، لم يطق صبراً على هذا الكلام الذي اعتبره فارغاً ولا وزن له، ولا دليل عليه.

وهو ما جعل العلامة محب الدين الخطيب يعقب عليه في مجلة (الإخوان المسلمين) تحت عنوان: (هل الحكم الشرعي كلام فارغ؟).

ورد عليه الشيخ الغزالي بمقال بعنوان: (هل هو حكم شرعي؟).

والمقالان يمثلان نموذجاً يحتذى في حوار العلماء، الذين يقدر بعضهم بعضاً، وإن كان الخطيب يمثل هدوء الشيوخ، والغزالي يمثل ثورة الشباب.

وأعظم ما يضيق به الشيخ أن يسمع أو يقرأ من بعض علماء الدين من يقول في عصرنا: إن الشورى مندوبة وليست واجبة، وهي معلمة وليست ملزمة!

وحديثه في مقاومة الاستبداد والتسلط على الشعوب بالقهر والجبروت، حديث طويل دافق جاد.

وقد عرفنا من أوائل كتبه (الإسلام والاستبداد السياسي) وهو مجموعة محاضرات ألقاها في معتقل الطور سنة ١٩٤٩م.

ولكنه تناول الموضوع في كتب عدة، وبأساليب شتى؛ لأنه يمثل دعامة أساسية في فكره الإصلاحي والدعوي، وفي فقهه السياسي.

حرب على الفساد السياسي

تحدث الشيخ عن الفساد السياسي في كتابه: (هموم داعية) فقال: «الفساد السياسي مرض قديم في تاريخنا، هناك حكّام حفروا خنادق بينهم وبين جماهير الأمة.. لأن أهواءهم طافحة، وشهواتهم جامحة.. لا يؤتمنون على دين الله.. ولا دنيا الناس.. ومع ذلك فقد عاشوا آماداً طويلة.

وقد عاصرت حكاماً تدعو عليهم الشعوب، ولا تراهم إلا حجارة على صدرها توشك أن تهشمه. انتفع بهم الاستعمار الشرقي والغربي على سواء في منع الجماهير من الأخذ بالإسلام والإحتكام إلى شرائعه. بل انتفع بهم في إفساد البيئة حتى لا تنبت فيها كرامة فردية، ولا حرية اجتماعية، أياً كان لونها.

ومع هذا البلاء، فقد رأيت منتسبين إلى الدعوة الإسلامية يصورون الحكم الإسلامي المنشود تصويراً يثير الإشمئزاز كله.. قالوا: إن للحاكم أن يأخذ برأي الكثرة أو رأي القلة، أو يجنح إلى رأي عنده وحده.. !»[1].

ووضع بعضهم دستوراً إسلامياً أعطى فيه رأس الدولة سلطات خرافية لا

---

(١) رددنا على فتوانا عن (الإسلام والديمقراطية) في الجزء الثاني من كتابنا: (فتاوى معاصرة).

يعرفها شرق ولا غرب[1]. . وعندما تدبرت هذا الكلام وجدت أن معايب ثلاثة تلتقي فيه:

الأول: سُوء فهم لمعنى الشورى، وغباءٌ مطلق في إنشاء أجهزتها المشرفة على شؤون الحكم.

الثاني: عَمىً عن الأحداث التي أصابت المسلمين في أثناء القرون الطوال، والتي نشأت عن استبداد الفرد، وغياب مجالس الشورى.

الثالث: جهل بالأصول الإنسانية التي نهضت عليها الحضارة الحديثة، والرقابة الصارمة التي وضعت على تصرفات الحاكمين.

فإذا استقبل المسلمون القرن الخامس عشر، وفهم عدد منهم لوظيفة الحكم لا يتجاوز هذا النطاق العقيم، فكيف تسير الأمة، وأين تتجه؟؟!

إن الفقه الدستوري في أمتنا يجب أن تنحسر عنه ظلال الحجاج، وعبيد الله بن زياد، وبعض ملوك بني العباس، وبعض سلاطين آل عثمان.

ويجب أن يمنع عن الخوض فيه شيوخ يقولون: إن الرسول ﷺ افتات على الصحابة في عمرة الحديبية. فمن حق غيره أن يفتات على الناس ويتجاوز آراءهم.

إن ذلك الضلال في تصوير الإسلام يفقد الإسلام حق الحياة.

والمعروف أن الرسول ﷺ احترم الشورى، ونزل على حكمها فيما لا وحي فيه، وأن قصة الحديبية تصرف فيها الرسول ﷺ على النحو المروي لما حبس ناقته حابس الفيل، وأحس أن الله تعالى يلزمه بمسلك يجنب الحرم ويلات حرب سيئة.

فكيف يجيء من يعطي الرؤساء حق الحرب والسلام، بعيداً عن الشورى؛ لأن الرسول ﷺ فعل ذلك يوماً ما في مكة التي يعلل القرآن مع الحرب فيها بقوله:

---

(١) يشير إلى الدستور الذي وضعه (حزب التحرير الإسلامي) وأصدره الشيخ تقي الدين النبهاني مؤسس الحزب في كتابه: (نظام الإسلام).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفتح: ٢٤، ٢٥].

وظاهر أن الرسول لله اتجه مع توجيه السماء له.

وظاهر كذلك أن الشورى تكون حيث لا نص فيه يوجِّه، وأن الأمة هي مصدر السلطة حيث لا نص بداهة.

ويؤسفني أن الكلام عن تكوين الدولة عندنا تعرّض له أقوام على حظ كبير من الطفولة العقلية، أو على حظ من الزلفى يكسبون به الدنيا ويفقدون به الإيمان.

وإصلاح أداة الحكم وأصله الأول يحتاج إلى فقهاء أتقياء أذكياء»[1]. اهـ.

وفي كتاب آخر، رد على الذين اعترضوا على اتخاذ أساليب الديمقراطية وضماناتها لكبح جماح الحكام المتسلطين، والذين قالوا: إن ذلك من معالم الديمقراطية (الغربية)، ونحن نرفض استيراد مبادىء أجنبية لتحكم أمتنا، حسبنا ما لدينا.

قال الشيخ: «هذا كلام جميل، وإنه ليسرني أن نحسن اتباع ما هدانا الله به، غير أنه من الإنصاف أن نعرف وجهة النظر الكاملة عند من طبقوا النظام الديمقراطي في الغرب، وعند من حاولوا الاقتباس منه هنا، حتى لا يعترض الدعاة بجهالة ما لا يدركون.

إن الدساتير هناك تتضمن مبادىء أو نصوصاً ثابتة ليست موضع جدل، ولا تؤخذ عليها آراء، وتتضمن شؤوناً أخرى توضح ما يناقش، ويقع فيه التأييد والتفنيد.

---

(١) هموم داعية: ص ٢٥٠ ــ ٢٥٣.

والأقطار الإسلامية التي حاولت التقليد عندما تجعل الإسلام دين الدولة، والفقه الإسلامي مصدر التشريع، فإن النقاش سيكون بعد ذلك في الشؤون الدنيوية، وفي المصالح المرسلة وفي تقويم أفعال الرجال تزكية أو بخساً، وتلك كلها لا حرج في تناولها وكما قيل: لا اجتهاد مع النص، وبعيداً عن دوائر النصوص تتفاوت الأنظار وتتعدد الآراء.

سيقال: إذا سلمنا بهذا الذي قلته كله، فنحن زهاد في جلب عناوين أجنبية لنظمنا الإسلامية.

وهذا والله دخيل، يبقى أن نكشف للناس ما لدينا، ونقول لهم: هذا عوض عن ذاك. إننا نرفض ذاك الدخيل، ونقدم بدله هذا الأصيل: الشورى الإسلامية بدل الديمقراطية الغربية.

وعلى العلماء والدعاة أن يكشفوا أسباب التفضيل، وجوانب الترجيح..

وقلت أداعب أحد أولئك المحافظين أولي الغيرة: هل الشورى ملزمة للحاكم؟ فأجاب لا؟!!

قلت كيف تتم الشورى؟ قال: مع أهل الحل والعقد

قلت: كيف يتكون مجلسهم؟

فسكت غير قليل ثم أجاب: يكوّنه الحاكم!

قلت: مستشارون يختارهم الحاكم برغبته، وله حق ألا يلتزم برأيهم، تلك هي الديمقراطية الدينية؟!!

يا صديقي إن الديمقراطية الغربية ــ وأنا أكره الاستيراد ــ امتدت في الفراغ الذي صنعتموه أنتم، ووجدت لها عشاقاً؛ لأن تصوركم للحقائق الدينية والمدنية بالغ التشوية، وملاحظتكم لطبائع البشر وتاريخ الأمم وهي تنشد الرحمة والعدالة تكاد تكون معدومة.

إنكم تحسنون الإماتة ولا تحسنون الإحياء، تقولون باسم الله: هذا حرام، ولا تجيؤون بالحلال الذي يشبع النهمة، ويسد طريق المعصية!

ماذا لو فكرتم في طريقة معقولة يتكون بها أهل الحل والعقد؟ وفي مواضع كثيرة تكون الشورى فيها ملزمة، وماذا لو استفدنا من تجارب الآخرين؟». اهـ.

لا تؤخذ الديمقراطية على إطلاقها

وأحب أن أؤكد هنا حقيقة مهمة، وهي أن دعوة الشيخ إلى الإستفادة من الديمقراطية، لا تعني أخذها على إطلاقها، فهو يفرق بين الوسائل والأهداف، وبين الضمانات والمبادىء.

ولهذا يعيب على الديمقراطية أنها تبيح المنكرات، ولا تقف عند حدود الله.

يقول الشيخ:

«إنني أومن بالشورى، وأزدَري الاستبداد السياسي من أعماق قلبي، وأرد إليه أغلب هزائم أمتنا خلال تاريخها..

وأرمق الديمقراطية الغربية فأحسد أصحابها على مناقشة الآراء بحرية، وعلى استكانة الحكام للحق، على اعتزاز الأفراد بكراماتهم، وكنت أهمس إلى نفسي: أما يجيء يوم يظفر فيه المسلمون بمثل هذه النعمة؟.

بَيْدَ أنني مسلم، لا يتقدم شيء أبداً على ولائي لله، وقد تابَعْتُ مناقشات مجلس العموم البريطاني في مسألة إلغاء عقوبة الإعدام، ورأيت كيف حاولت رئيسة الوزراء الاقتصاص من القتلة، وكيف خذلها أغلب أعضاء المجلس وأصرّوا على إلغاء عقوبة الإعدام.

قلت: هذا هو الفرق بين الشورى عندنا وبين الشورى عندهم. نحن نرى أنه لا اجتهاد مع النص، ولا شورى مع كلام الله ورسوله، وهؤلاء ساء ظنهم بالدين

كله، وقرروا البحث بعقولهم عن مصالحهم، وكفر المغربيين بالدين يرجع إلى أسباب نابعة من البيئة لديهم. لا نشرحها هنا»[1].

ضياع الحرية من وراء التخلف

ومن حفاوة الشيخ بالحرية، ومعرفته بقيمتها في الحياة إذا وجدت، وبأثرها إذا ضاعت، جعل ضياعها، وغلبة الاستبداد عليها هو السر وراء تخلفنا. استمع إليه يقول:

«بدأت صناعة الطيران في مصر والهند في سنة واحدة، كما بدأت بحوث الذرة تقريباً في السنة نفسها، وأكب علماء البلدين على القيام بأعمالهم، والاستفادة من التقدم الأوروبي في هذا المجال.

وبعد ربع قرن نجح الهنود في إنتاج طائرة هندية، كما نجحوا في صنع قنبلة ذرية!.

أما عندنا فقد توقف مصنع الطيران بعد سنوات معدودة، وتجمد العمل في وكالة الطاقة الذرية، وإلى الآن لم نخط إلى الأمام خطوة مقدورة!.

ما سبب هذا الفشل؟ هل العقل الهندي أذكى من العقل المصري؟ لم يقل ذلك أحد من المعاصرين أو الغابرين!.

السبب أن استقرار الحريات في الهند أتاح لكل ذي كفاية أن يعمل وأن ينجح.. وأن النظام الديمقراطي السائد أقام سباقاً لا حواجز فيه بين أصحاب المواهب، فانطلقوا بين عوامل التقرير والتشجيع يخدمون أمتهم، ويتبارون في إعلاء شأنها.

والنظام الديمقراطي في الهند «المختلفة» جعل الحكومة المستولية على

---

(١) الغزو الثقافي يمتد في فراغنا: ص ٦٢، ٦٣.

السلطة تجري الإنتخابات، فتسقط فيها، وتأتي بالسيدة المعارضة «أنديرا غاندي» لتحكم، وكذلك يتكرر الأمر مع السيدة نفسها فتضع مقاليد الحكم في أيد أخرى؛ لأن الأمة رأت ذلك.

إن امرأة تحكم ــ ومعها جهاز شورى دقيق ــ أقرب إلى الله، وأحنى على الناس، من مستبد يقف الغراب على شواربه، ويزعم أنه أحاط بكل شيء علماً، وهو لا يدري شيئاً!»[1].

(١) علل وأدوية: ص ١٩١.

٤ ـ تحرير المرأة والأسرة

المرأة نصف الوجود البشري، إن لم تكن أكثر. وهي ـ بالنسبة للرجل ـ أمه وابنته وأخته وزوجه وعمته وخالته. ولا قيام للحياة البشرية إلا بالجنسين. فلا بد أن ينهضا بعبئها معاً، وفقاً لفطرة الله التي فطر عليها الناس، وهداية السماء التي أوحى بها الله.

وقد ظلمت الجاهليات المختلفة المرأة، وحرمتها حقوقها الفطرية، ونظرت إليها الناس نظرة فيها كثير من الإهانة أو الإتهام أو الريبة. حتى جاء الإسلام فانتشلها من ظلم الجاهلية وظلامها، ورد إليها اعتبارها، فكرمها إنساناً، وكرمها أنثى، وكرمها ابنة، وكرمها زوجة، وكرمها أماً، وكرمها عضواً في المجتمع.

فهي مكلفة مثل الرجل، مجزية في الدنيا والآخرة مثل ما يجزى، يقول تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧]، ويقول سبحانه: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

فالمرأة من الرجل والرجل من المرأة، أي كلاهما مكمل لصاحبه وليس خصماً له.

ويقول عز وجل: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [التوبة: ٧١].

فالمرأة مطالبة كالرجل بالوظائف الإجتماعية والدعوية، وفي مقدمتها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فليست هذه وظائف رجالية.

والرسول الكريم عليه الصلاة والسلام يقول: «إنما النساء شقائق الرجال»[1].

ومع وضوح التعاليم القرآنية والنبوية في شأن المرأة، فإن المسلمين في أعصار التخلف والإنهزام الحضاري ظلموا المرأة، وأضاعوا كثيراً من حقوقها وجعلوها سجينة بيتها، جاهلة بدينها ودنياها.

ظلمها كثير من الآباء، فزوجوها بغير رضاها وإذنها، ولم يعطوها حقها في الميراث، وهو فريضة من الله. وظلمها كثير من الأزواج، فحرموها الذهاب إلى المسجد، بل منعوها حتى من زيارة الأبوين.

وجار عليها المجتمع، واعتبرها مجرد آلة لمتعة الرجل، وقال بعض الناس: إن مهمتها أن تلد الرجال!

هذا الوضع المزري للمرأة المسلمة هو الذي غاظ الشيخ الغزالي، وعمل على مقاومته، وإصلاح ما أفسده الزمن من حال المرأة المسلمة، وتحريرها من عسف الرجال وتحكمهم بغير حق. ولم أر من المفكرين الإسلاميين من اهتم بأمر المرأة وإنصافها مثل الشيخ الغزالي.

وهو يريد أن يحرر المرأة من نوعين من التقاليد الدخيلة على الإسلام:

١ ــ التقاليد الموروثة من عهود الإنحطاط في الحضارة الإسلامية، حيث اختفت التعاليم الصحيحة، التي جاءت بها النبوة الهادية، لتحل محلها تقاليد صنعتها أوهام البشر وأهواؤهم ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي عن عائشة، والبزار عن أنس، كما في الصحيح الجامع الصغير.

٢ ــ التقاليد الوافدة مع الغزو الفكري، والاستعمار الثقافي، وهي تقاليد مناقضة لتلك التقاليد البالية، تلك تريد أن تسجنها، وهذه تريد أن تعريها. وكلتاهما ضد الفطرة والوحي.

انتصار للمرأة باسم الإسلام

انتصر الغزالي للمرأة ودافع عنها باسم الإسلام وشريعته، وشهر سيفه ــ وسيفه قلمه ــ في وجوه الذين حرموها حقوقها التي فرضها لها الإسلام.

وإذا نظرنا إلى الغزالي الداعية، أو الغزالي المصلح، أو الغزالي المسفر، أو الغزالي الفقيه، فسنجد أنه في كل مكان من هذه المجالات منصف للمرأة، محام بحرارة عنها.

آداب اللقاء بين الجنسين

يرفض الغزالي حبس المرأة بين جدران بيتها الأربعة، فلا ترى رجلاً ولا يراها رجل. ويرى أن هذه شائعة مكذوبة في مجال العلم الشرعي. يقول حفظه الله:

«الفتوى الشائعة بين بعض المسلمين والمتناقلة بين خصوم الإسلام: أن الإسلام يقيم أسواراً عالية بين الجنسين حتى لا يرى أحدهما الآخر، فالرؤية المجردة محرمة!.

وقد رجعت إلى القرآن الكريم والسنن المتواترة والصحيحة، فوجدت أن هذه الشائعة مكذوبة، وأن الرؤية العادية لا شيء فيها، وإنما المرفوض هو الرؤية الجريئة والوضيعة التي تبحث عن الإثم! ومن ثم أمر الدين بغض البصر، أمر بذلك الرجال والنساء على السواء، فإذا حدث أن وقع البصر على شيء يثير، وجب على المسلم ألا يعاود النظر، وأن يحصن ضميره من الريبة وشتى الوساوس.

فالمسجد والشارع وأرجاء المجتمع يوجد فيها الجنسان تحكمهما هذه الآداب: عدم التبرج والإثارة، غض البصر والتزام العفة، انشغال كل مسلم ومسلمة بالأغراض المشروعة التي خرج من أجلها..

وقد تواتر ذلك في حياة السلف الأول، فرئيت المرأة في المسجد، بل تبعت الجيوش المقاتلة، يحيط بها سياج من آداب الإسلام المقررة.

وأعرف أن هناك آثاراً واهية، نبذها أصحاب الدقة العلمية في تمحيص المرويات، ولم يذكرها عالم يروي الصحاح، ولا احترمها فقيه ينقل حقائق الإسلام، مثل ما روي عن فاطمة: أن المرأة لا ترى رجل ولا يراها رجل، ومثل حديث منع الرسول بعض نسائه أن يرين عبد الله ابن أم مكتوم! وتلك كلها أخبار لا تساوي الحبر الذي كتبت به، وهي ظاهرة التناقض مع مقررات الكتاب والسنة المقطوع بثبوتها ودلالتها.

ولكن هذه المرويات المنكرة من الناحية العلمية هي التي صنعت الفكر الإسلامي في العصور الأخيرة، وفرضت الأمية والتخلف لا على المرأة وحدها، بل على نظام الأسرة وكيان المجتمع وطبيعة التشريع.

ووجد من خطباء المساجد من يقول: المرأة لا تخرج من بيتها إلا إلى الزوج أو إلى القبر!

ومن أيام جائتني امرأة ثاكلة تقول: إن فؤادها يحترق من الحزن، وإنها تريد أن تزور قبر ابنها.. قلت لها: ولماذا لم تزوريه؟ قالت: إن إمام المسجد ذكر أن اللعنة تنزل على من يفعل ذلك! قلت لها: زوري قبر ابنك وأنت محتسبة صابرة، ثم عودي إلى بيتك وأنت مسلّمة بقضاء الله، ولك الأجر إن شاء الله، إن النبي عليه الصلاة والسلام ــ فيما روى البخاري ــ لم ينه عن هذه الزيارة، ولا لام صاحبتها.

إن هناك عقولاً معتلة، تتعشق الآثار المعتلة، وتبني عليها ما تهوى من أحكام والإسلام النقي بريء من هذه الإنحرافات..

إننا في عصر شاركت المرأة الرجل في غزو الفضاء، فلا يجوز أن نترك القاصرين يثيرون على ديننا التهم، وينقلون إلى الناس ما في نفوسهم من علل»[1].

المرأة وصلاة الجماعة في المسجد

يرى الشيخ أن المسلمين في عصور التخلف جاروا على المرأة، حتى إنهم حرموها من الذهاب إلى المساجد، مع ما للجماعة من أثر عميق في سلوك الإنسان، فضلاً عما يكون في المسجد من دروس وعظات.

وهذا أمر بدأ مبكراً منذ عهد الصحابة، حتى إن عبد الله بن عمر ذكر الحديث الشريف: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»[2]، فقال له أحد أبنائه: «والله لنمنعهن، إنهن يتخذنه دخلاً» يريد أنهن يجعلن الصلاة حيلة للخروج والريبة! فقال له أبوه: أقول: قال رسول الله.. وتقول: والله لنمنعهن!! والله لا كلمتك أبداً.. وهجره حتى مات رضي الله عنه.

ويرى الشيخ الغزالي أن المسلمين تركوا رواية الأب الصحابي الفقيه، واتبعوا رأي الابن العاق الجاهل!

يقول الشيخ:

«صح في السنة: أن المرأة راعية في بيتها وهي مسؤولة عن رعيتها! ولا ريب أن شؤون الأولاد خصوصاً الرضع، وإعداد البيت لاستقبال الرجل العائد من عمله، كل ذلك يحول دون انتظام المرأة في الجماعات الخمس.

ولذلك نرى أن حضور الجماعات مطلوب منها بعد أن تفرغ من وظائف بيتها، فإذا قامت بما عليها فلا يجوز لرجلها أن يمنعها من الذهاب إلى المسجد، وقد جاء في الحديث: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله».

---

(١) الحق المر ٢/١١٨، ١١٩، ط دار الشروق.

(٢) الحديث متفق عليه عن ابن عمر، كما في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، برقم (٢٥٤).

ونحن موقنون بأن النبي عليه الصلاة والسلام جعل أحد أبواب المسجد خاصاً بالنساء، وأنه أقامهن في الصفوف المؤخرة من المسجد ــ وذلك أصون لهن في الركوع والسجود ــ وأنه زجر الرجال الذين يقتربون من صفوفهن، كما زجر النساء اللائي يتقدمن قريباً من صفوف الرجال. . .

وقد بقيت صفوف النساء في المسجد طيلة العهد النبوي وأيام الخلافة الراشدة، لم يشغب عليها شاغب، تبدأ مع الفجر وتنتهي عند العشاء. .

وربما قامت للنساء جماعات حاشدة لصلاة التراويح في رمضان، ومعروف أن اشتراكهن في صلاة العيد وسماع الخطبة من شعائر الإسلام.

بيد أن الإزدهار الذي أحدثه الإسلام في عالم المرأة أخذ يتعرض للذبول والتلاشي فوضع حديث يمنع تعليم النساء الكتابة، كي يبقين على أميتهن الأولى!!.

لحساب من تعود هذه الجاهلية؟.

وعندما يفرض على نصف الأمة الجهل والعمى فكيف تنشأ الأجيال المقبلة؟.

ثم شاع حديث آخر يأبى على النساء حضور الجماعات كلها، بل طلب من المرأة إذا أرادت الصلاة في بيتها أن تختار المكان الموحش المعزول، فصلاتها في سرداب أفضل من صلاتها في الغرفة، وصلاتها في الظلمة أفضل من صلاتها في الضوء!!.

وراوي هذا الحديث يطوّح وراء ظهره بالسنن العملية المتواترة عن صاحب الرسالة.

وينظر إلى المرأة المصلية وكأنها أذى يجب حصره في أضيق نطاق وأبعده، ولنقرأ هذا الحديث الغريب كما ذكره ابن خزيمة وغيره:

عن أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي أنها جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إني أحب الصلاة معك، قال: «قد علمت أنك تحبين الصلاة معي! وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك، وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك، وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدي». قال الراوي: فأمرت فبني لها مسجد في أقصى شيء من بيتها وأظلمه، وكانت تصلي فيها حتى لقيت الله عز وجلّ!!.

والبيت في الحديث هو غرفة النوم، والحجرة غرفة الجلوس، والصلاة في الأولى أفضل من الصلاة في الأخرى!.

والصلاة في غرفة الجلوس أفضل من الصلاة في عرصة الدار، وهي في عرصة الدار أفضل من الصلاة في مسجد الحيّ..

وكلما ضاف المكان وبعد واستوحش كانت الصلاة فيه أفضل!.

ويجعل ابن خزيمة عنوان الباب الذي ذكر فيه هذه القضايا: «صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في مسجد رسول الله». وأن قول النبي ــ عليه الصلاة والسلام ــ : «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد» إنما أراد به صلاة الرجال دون صلاة النساء!!.

والسؤال السريع: إن كان هذا الكلام صحيحاً فلماذا ترك النبي النساء يشهدن الجماعات معه طوال عشر سنين من الفجر إلى العشاء؟ ولماذا خص أحد أبواب المسجد بدخولهن؟ ولماذا لم ينصحهن بالبقاء في البيوت بدل هذه المعاناة الباطلة؟.

ولماذا قصر صلاة الفجر على سورتين صغيرتين عندما سمع بكاء رضيع مع أمه حتى لا ينشغل قلبها؟.

ولماذا قال: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله؟» ولماذا استبقت الخلافة الراشدة صفوف النساء في المساجد بعد وفاة الرسول الكريم؟.

إن ابن حزم أراح نفسه وأراح غيره عندما كذّب أحاديث منع النساء من الصلاة في المساجد، وعدّها من الباطل!.

وعلماء المصطلح يقولون: يعتبر الحديث شاذا إذا كان الثقة قد خالف به الأوثق.

فإذا كان المخالف ليس ثقة بل ضعيفاً، فحديثه متروك أو منكراً!.

ولم يجيء في أحد الصحيحين ما يفيد منع النساء من الصلاة في المساجد.. فهذه الأحاديث مردودة كلها.. فكيف إذا خالف الضعيف السنة العملية المتواترة والمشهورة؟ إن حديثه يستبعد ابتداء..

وقد أتت على المسلمين عصور ماتت فيها السنة الصحيحة، ولا تزال هذه المأساة باقية تتعصب لها بيئات لا تعرف المرويات المتروكة والمنكرة..

وقد يقبل زجر المرأة عن حضور الجماعات إذا كانت متبرجة، فإذا الذهاب إلى المساجد ليس استعراضاً للزينات، وبعثرة الفتن! إنه سعي لمرضاة الله، وغرس للتقوى..

وحجز النساء عن هذا الشر هو بتنفيذ وصاة رسول الله «... يخرجه تفلات» أي في ملابس عادية وهيئة طبيعية، لا تعطر ولا تبختر..

أما إصدار حكم عام بتحريم المساجد على النساء فهو مسلك لا صلة له بالإسلام...»[1].

---

(١) السنة النبوية: ص ٦١ ــ ٦٤.

صوت المرأة ليس عورة

كما يكذب الشيخ الغزالي بقوة الشائعة الأخرى التي تقول: إن صوت المرأة عورة! كتب يقول:

«كان شاب قريباً مني يكاد يتميز من الغيظ، ونحن نستمع إلى بحث تلقيه إحدى السيدات. قلت له: ما بك؟ هل في الكلام خطأ؟ فرد على عجل: أتقر هذا؟! أليس صوت المرأة عورة؟ فأجبت في برود: هذا كذب لا أصل له في دين الله.

اسمع حكم الإسلام من كتاب الله، يقول الله لأمهات المؤمنين إذا حدثن أحداً: ﴿... فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، فهل يصمتن فلا ينبسن ببنت شفة لأن الصوت عورة؟ كلا ﴿وقلن قولاً معروفاً﴾ أي: ليكن الكلام طبيعياً ليست به نغمة مريبة ولا لحن مثير!.

وعندما جاءت المؤمنات مهاجرات من مكة بعد عهد الحديبية عقد لهن امتحان شفوي لتعرف أحوالهن، هل هن فارات بدينهن حقاً؟ أم لهن مآرب أخرى، فإذا تبين من النقاش إيمانهن قبلن في المجتمع الإسلامي ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة: ١٠]، ولم يدر بخلد أحد أن صوت المرأة عورة؟.

وعندما جاءت المجادلة تشرح لرسول الله ﷺ قضيتها، وتراجعه في الحكم لم يقل لها: استكتي إن صوتك عورة...

وعندما جاءت بنت شعيب ــ التي صارت زوجة لموسى فيما بعد ــ تقول له: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥]، لم يقل لها موسى: كيف تتحدثين معي هكذا وصوت المرأة عورة؟

وعندما دخلت ملكة سبأ قصر سليمان، وأراها العرش الذي استحضره من اليمن إلى القدس وسألها: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ [النمل: ٤٢]

قال المفسرون: عرف من إجابتها ذكاءها لأنها مع إحساسها بأنه عرشها استبعدت أن يطير آلاف الأميال لتلقاه هنا! ولم يقل عالم ولا جاهل: إن صوتها عورة.

وعندما خرجت زينب بنت رسول الله على المسلمين في المسجد وأعلنت أنها أجارت زوجها الذي أسره المسلمون في بدر، استمع الناس إلى الصوت الراجي المحزون، وقال الرسول الكريم في رقة: «لم نتفق على هذا وإن شئتم رددتم إليها زوجها»، ولم يقل أحد: إن صوتها عورة...

إنني أكره من أعماق فؤادي علاقة المرأة بالرجل في الحضارة المادية التي أقامها الغرب ــ الصليبي والشيوعي ــ بيد أن هذه الحضارة سوف تبقى بأرجاسها وأدرانها ما بقي المتحدثون عن الإسلام يقدمونه بهذا الجهل والعمى!.

إن صوت المرأة ليس عورة، العورة هي في هذا التفكير الذي لا إسناد له، والذي يصرخ به شباب جهول، باسم الإسلام المظلوم»[1].

المرأة والوظائف العامة في المجتمع

موقف الغزالي هنا هو الموقف الذي يتفق مع الفطرة السليمة، ومع تعاليم الدين الصحيح. فقد كتب يقول حفظه الله:

«أكره البيوت الخالية من رباتها! إن ربة البيت روح ينفث الهناءة والمودة في جنباته ويعين على تكوين إنسان سوي طيب.. وكل ما يشغل المرأة عن هذه الوظيفة يحتاج إلى دراسة ومراجعة.

وإلى جانب هذه الحقيقة فإني أكره وأد البنت طفلة، ووأدها وهي ناضجة المواهب مرجوّة الخير لأمتها وأهلها!! فكيف نوفق بين الأمرين؟.

---

(١) الحق المرّ ٢/١٢٨، ١٢٩.

لنتفق أولاً على أن احتقار الأنوثة جريمة، وكذلك دفعها إلى الطرق لإجابة الحيوان الرابض في دماء بعض الناس.

يمكن أن تعمل المرأة داخل البيت وخارجه، بيد أن الضمانات مطلوبة لحفظ مستقبل الأسرة. ومطلوب أيضاً توفير جو من التقى والعفاف تؤدّي فيه المرأة ما قد تكلّف به من عمل.

إذا كان هناك مائة ألف طبيب، أو مائة ألف مدرس، فلا بأس أن يكون نصف هذا العدد من النساء. والمهم في المجتمع المسلم قيام الآداب التي أوصت بها الشريعة، وصانت بها حدود الله، فلا تبرج ولا خلاعة، ولا مكان لاختلاط ماجن هابط، ولا مكان لخلوة بأجنبي ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢٢٩].

على أن الأساس الذي ينبغي أن نرتبط به أو نظل قريبين منه هو البيت، إنني أشعر بقلق من ترك الأولاد للخدم، أو حتى دور الحضانة.

إن أنفاس الأم عميقة الآثار في إنضاج الفضائل وحماية النشء.

ويجب أن نبحث عن ألف وسيلة لتقريب المرأة من وظيفتها الأولى، وهذا ميسور لو فهمنا الدين على وجهه الصحيح، وتركنا الإنحراف والغلوّ..

أعرف أمهات فاضلات مديرات لمدارس ناجحة، وأعرف طبيبات ماهرات شرفن أسرهن ووظائفهن، وكان التدين الصحيح من وراء هذا كله..

وقد لاحظت أن المرأة اليهودية شاركت في الهزيمة المحزنة التي نزلت بنا، وأقامت دولة إسرائيل على أشلائنا، إنها أدت خدمات اجتماعية وعسكرية لدينها.

كما أن امرأة يهودية هي التي قادت قومها، وأذلت نفراً من الساسة العرب لهم لحى وشوارب في حرب الأيام الستة وفي حروب تالية!.

وقد لاحظت في الشمال الإفريقي وأقطار أخرى أن الراهبات وسيدات متزوجات وغير متزوجات يخدمن التنصير بحماس واستبسال!.

ولعلنا لا ننسى الطبيبة التي بقيت في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين وهي تهدم على رؤوس أصحابها، وتحملت أكل الموتى من الحيوانات والجثث، ثم خرجت ببعض الأطفال العرب آخر الحصار لتستكمل معالجة عللهم في انجلترا!

إن هناك نشاطاً نسائياً عالمياً في ساحات شريفة رحبة، لا يجوز أن ننساه، لما يقع في ساحات أخرى من تبذّل وإسفاف.

وقد ذكرني الجهاد الديني والإجتماعي الذي تقوم النساء غير المسلمات به في أرضنا أو وراء حدودنا، بالجهاد الكبير الذي قامت به نساء السلف الأول في نصرة الإسلام.

لقد تحملن غربة الدين بشجاعة، وهاجرن وآوين عندما فرضت الهجرة والإيواء، وأقمن الصلوات رائحات غاديات إلى المسجد النبوي سنين عدداً، وعندما احتاج الأمر إلى القتال قاتلن.

وقبل ذلك أَسْدَيْنَ خدمات طبية ــ أعنّ في المهام التي يحتاج إليها الجيش.

وقد ساء وضع المرأة في القرون الأخيرة، وفرضت عليها الأمية والتخلف الإنساني العام...

بل إنني أشعر بأن أحكاماً قرآنية ثابتة أهملت كل الإهمال؛ لأنها تتصل بمصلحة المرأة، منها أنه قلما نالت امرأة ميراثها، وقلما استشيرت في زواجها!.

وبين كل مائة ألف طلاق يمكن أن يقع تمتيع مطلقة.. أما قوله تعالى: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤١]، فهو كلام للتلاوة..

والتطويح بالزوجة لنزوة طارئة أمر عادي، أما قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ [النساء: ٣٥]، فحبر على ورق..

المرأة أنزل رتبة وأقل قيمة من أن ينعقد لأجلها مجلس صلح! إن الرغبة في طردها لا يجوز أن تُقاوم. . .!!

وقد نددت في مكان آخر بأن خطيئة الرجل تغتفر، أما خطأ المرأة فدمها ثمن له!!.

وقد استغل الاستعمار العالمي في غارته الأخيرة علينا هذا الإعوجاج المنكور، وشنّ على تعاليم الإسلام حرباً ضارية! كأن الإسلام المظلوم هو المسؤول عن الفوضى الضاربة بين أتباعه. . .

والذي يثير الدهشة أن مدافعين عن الإسلام أو متحدثين باسمه وقفوا محامين عن هذه الفوضى الموروثة؛ لأنهم ــ بغباوة رائعة ــ ظنوا أن الإسلام هو هذه الفوضى! والجنون فنون والجهالة فنون!!»[1].

(١) السنة النبوية: ص٥٢ ــ ٥٥. وانظر تفصيل رأي الغزالي في: تولي المرأة للمناصب العامة في حديثنا عن (الغزالي والفقه)، الفصل الثامن.

٥ ـ تصحيح التدين المغلوط

عني مفكرنا الغزالي بتصحيح الفكر الديني، والقصور الديني لدى المسلمين خاصتهم وعامتهم. وكان هذا بارزاً بيّناً في كتبه الأولى: الإسلام والأوضاع.. الإسلام والمناهج.. الإسلام المفترى عليه.. الإسلام والإستبداد.. تأملات في الدين والحياة.. ليس من الإسلام.. كيف نفهم الإسلام.. وغيرها.

ثم ازداد ذلك بروزاً وتأكداً في كتب المرحلة الأخيرة: دستور الوحدة الثقافية. وما بعده.

تصحيح المفاهيم المغلوطة

وكان من أهم مظاهر الإصلاح والتجديد التي وجه إليها الغزالي فكره وقلمه وبيانه: تصحيح المفاهيم الإسلامية التي غلط الناس في تصورها، وأساؤوا في تصويرها.

ومن ذلك: مفهوم (العبادة). وقد وضح ذلك في عدد من كتبه.

ولعل من أبلغ ما كتبه في ذلك ما جاء في كتبه: (مشكلات في طريق الحياة الإسلامية) إذ يقول:

«عندما ننظر إلى العبادات السماوية نجد أداءها في اليوم والليلة لا يستغرق نصف ساعة، ونجد تعاليمها تستغرق صفحة أو صفحتين، ويبقى الزمان بعد ذلك واسعاً، والمجال رحباً لفهم الحياة واكتشاف طاقاتها وتسخيرها كلاً و جزءاً لخدمة الدين.

وكل جهد يبذل في ذلك يسمى شرعاً: عملاً صالحاً، وجهاداً مبروراً، وضميمة إلى الإيمان تؤهل المرء لرضوان الله...

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنبياء: ٩٤].

ومن المستحيل إقامة مجتمع ناجح الرسالة إذا كان أصحابه جهالاً بالدنيا عجزة في الحياة، والصالحات المطلوبة تصنعها فأس الفلاح، وإبرة الخياط، وقلم الكاتب، ومشرط الطبيب، وقارورة الصيدلي، ويصنعها الغواص في بحره والطيار في جوه، والباحث في معمله، والمحاسب في دفتره، يصنعها المسلم صاحب الرسالة وهو يباشر كل شيء، ويجعل منه أداة لنصرة ربه، وإعلاء كلمته.

وإنه لفشل دفعنا ثمنه باهظاً عندما خبنا في ميادين الحياة، وحسبنا أن مثوبة الله في كلمات تقال ومظاهر تقام!

ومن قديم رأى نفر من العابدين أن يحصروا عباداتهم في الصلوات والأذكار، يبدئون ويعيدون، ويظنون أن الأمم تقام بالهمهمة والبطالة، فمن ينصر الله ورسله؟ إذا كان أولئك جهالاً بالحديد وأفرانه ومصانعه؟ والله يقول في كتابه ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٢٥].

إن هناك سبعين صناعة مدنية وعسكرية تتعلق بالنفط واستخراجه والانتفاع بمشتقاته، لا نعرف منها شيئاً، فهل تخدم عقيدة التوحيد وما ينبني عليها بهذا العجز المهين...؟

إنه لو قيل لكل شيء في البلاد الإسلامية: عد من حيث جئت، لخشيت أن يمشي الناس حفاة عراة، لا يجدون ــ من صنع أيديهم ــ ما يكتسون، ولا ما يتعلمون، ولا ما يركبون، ولا ما يضيء لهم البيوت.... بل لخشيت أن يجوعوا؛ لأن بلادهم لا تستطيع الاكتفاء الذاتي من الحبوب!!

وقد رأيت صيدلياً مشغولاً ببحث قضية «صلاة تحية المسجد» في أثناء خطبة الجمعة، ومهتماً بترجيح مذهب على مذهب، فقلت له: لماذا لا تنصر الإسلام في ميدانك، وتدع هذا الموضوع لأهله؟

إن الإسلام في ميدان الدواء مهزوم! ولو أراد أعداء الإسلام أن يسمموا أمته في هذا الميدان لفعلوا، ولعجزتم عن مقاومتهم!

أفما كان الأولى بك وبإخوانك أن تصنعوا شيئاً لدينكم في ميدان خلا منه، بدل الدخول في موازنة بين الشافعي ومالك؟

وسألني طالب بأحد أقسام الكيمياء عن موضوع شائك في علم الكلام! فقلت في نفسي: إن جائزة «نوبل» لهذا العام قسمت بين نفر من علماء الكيمياء ليس فيهم عربي واحد، وحاجة المسلمين إلى الاستبحار في علوم الكيمياء ماسة، وقد أوردت في بعض كتبي كيف أباد الروس قرية أفغانية عندما شنوا عليها حرباً كيماوية، وذهب الضحايا في صمت، وتسامع جمهور المسلمين بالنبأ، وهو لا يدري شيئاً عما كان أو يكون.

قلت للطالب السائل:

إن ما تسأل عنه درسناه قديماً، وحكايته كيت وكيت، وخير لك أن تنصرف عن هذا الأمر، وأن تقبل بقوة على ما تخصصت فيه، إننا فقراء إلى النابغين في المادة التي نتعلمها، وأغنياء عن المشتغلين بالفلسفات الكلامية». اهـ.

الدين في خدمة الشعوب

كان الشيخ الغزالي يرى أن الإسلام مصدر قوة للشعوب، وليس قيداً في رجلها ولا غلاً في عنقها، بل هو العامل الأول على تحريرها من الطواغيت، الذين يغزونها من الخارج، أو يستبدون بها من الداخل، وقد غاظه أن يساء فهم الإسلام، حتى يسحب مع الأديان المحرفة والمخرفة، التي تثبط الشعوب عن المطالبة بحقوقها، والجهاد في سبيلها، طلباً لإحدى الحسنيين.

ومن ثم ألف مع بعض إخوانه من العلماء والأحرار المستنيرين لجنة تكتب وتنشر تحت عنوان اختارته شعاراً لها، وهو: الدين في خدمة الشعوب!

وربما أخذ على هذا العنوان أنه جعل الدين وسيلة وهو غاية، وأنه وضعه موضع (الشرطة في خدمة الشعب)!

ولكن الشيخ أراد أن يرد على الماركسيين الذين جعلوا من أبرز شعاراتهم: الدين أفيون الشعوب.

والشيخ يقف بقوة ضد هذا الفهم المغلوط للإسلام، الذي لم يكن يوماً ــ بحسب تعاليمه الأصيلة ــ أداة للحاكم ضد الشعوب، ولا للأقوياء ضد الضعفاء، ولا للأغنياء ضد الفقراء، ولا للملاك وأرباب المال ضد المستأجرين والعاملين.. إن الإسلام دائماً مع المستضعفين في الأرض في مواجهة المتألهين والمستكبرين.

ولعل من أقوى الفقرات التي كتبها في ذلك: ما قدم به كتابه: (الإسلام والأوضاع الإقتصادية) في طبعته الثانية، حين قال: «لم تستذل ــ في هذا العصر ــ شعوب كما استذلت شعوب الشرق، ولم يستغل شيء ــ في هضم حقوقها ــ كما استغل الدين، لقد أنطقوه حيث عليه أن يسكت، وأخرسوه حيث يجب أن يرسل الصراخ العالي، كما يصرخ الحارس اليقظ إذا رأى جرأة اللصوص الوقحين!!. وبذلك أصبحت الأمة مضيعة بين استذلال عنيد واستغلال منافق، وأصبح الدين مسخراً في ميادين شتى لتسويغ الحيف، والتقليل من خطره. فكان حقاً علينا ــ كمؤمنين ــ أن ننصف الدين من الأوضاع التي شانت حقيقته، وكان لزاماً علينا ــ كمواطنين ــ أن ننصف الوطن من الأنظمة التي ظلمت أهله، وأكلت ثروته، وكان من أجدر الحقائق بالإفصاح والإيضاح أن يعلم الناس علم اليقين أن الدين في خدمة الشعوب لا في خدمة فرد أو أفراد!!».

ويستمر الشيخ في بيان وظيفة الدين الحق، بعد أن يفضح مواقف رجال

الدين قبل الإسلام، الذين كتبوا آيات الدين في ألواح مذهبة، تعلق في قصور الملوك الظلمة، أو صاغوها في ألحان عذبة ترسلها الأصوات الحنون تراتيل ومزامير! ثم يقول الشيخ في بيان ثائر هادر:

إن الدين أنزل من عند الله لخدمة الشعوب وحدها، وليست آياته زينة تعلق على جدران القصور الظالمة، بل هي زلازل تدل بنيانها وتغل طغيانها، وما كان الوحي يوماً ما غناء مطربين، ولا تراتيل دجالين، وإنما هو نذير العدل يصرخ في آفاق الحياة باستنكار البغي والعدوان، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [آل عمران: ١٠٨].

وليست وظيفة رجال الدين أن يمشوا في ركاب العظماء! فهل هذه إلا وظيفة المتملقين من رجال الدنيا؟!. إن رؤساء الأديان المبعوثين من لدن الله كانوا ينشدون المساواة الحقة بين البشر، فإذا لم يستطيعوا أن يهبطوا بمنازل السادة فلن يعجزوا عن الإرتفاع بمستوى العبيد، ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: ٥، ٦].

وليس عمل الدين بين الناس أن يصبر المظلوم على ما نزل به، فهذه جريمة.

بل يقول الإسلام للرجل المغصوب في ماله، أو المنكوب في عرضه: «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد»... لا تستسلم أبداً... إن الدين في خدمتك: يضع السلاح في يمينك، ويضع الأمل في قلبك، ويضع الإصرار في إرادتك، ويكلفك أن تستميت دون حقك. إن الله لم يبعث أنبياءه ليستريح باسمهم نفر قلائل من حثالة الناس، أو من قادتهم العظام، إنما بعثوا ليستريح البشر كافة ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وهكذا سبقت مشيئة الله أن يكون الدين لخدمة الشعوب لا لسلب الشعوب واستغلال بنيها واستذلال أحرارها.

لشيء ما غلبت أمم على أمرها وذاقت ضراوة الوحوش من مستعمريها، أو. . . . من حكامها، وطالما تلفتت إلى الأرض وإلى السماء تلتمس النجدة!!!

لقد كفرت بالدنيا لما ظلمت فيها، ثم كفرت بالدين لما ترقبت معونته فلم يسعفها بها. أما هنا في الشرق فلن تتكرر المأساة الدامية! لن ندع الناس يكفرون لا بالدين ولا بالدنيا، سنقدم لها التأمين الإجتماعي مشرباً بروح الإيمان الحر. . . أو الإيمان بالله مفرغاً في نظام من الحرية والإخاء والمساواة ذلك هو الدين كما أنزل من عند الله:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت: ٥٣]

وما كان الدين مخدراً للشعوب كما يقول فيه الساخرون، ولا كان مخدراً للشعوب كما يصنع منه المسحرون. ولا مكان معه لشيوعية ولا رأسمالية. . . خطتنا الفذة أبداً هي: مع المظلوم حتى ينتصر، وعلى الظالم حتى ينكسر، وإلى جانب الشعوب حتى تتخلص من آسريها، وتثأر لنفسها من قاهريها. . . !».

ويختم مقدمة الكتاب بهذا النداء الثوري:

«يا ضحايا الكبت والفاقة والحرمان، لقد نزل الدين إلى الميدان بجانبكم فضعوا أيديكم في يده. إن الشفاه التي تأمر بإذلالكم يجب أن تقص، والأوضاع التي تغتال حقوقكم يجب أن تقصى!. والفراغ الذي خامر أفئدتكم تحت وطأة الاستعباد يجب أن تزاح غمته إلى الأبد».

النظرة الشمولية المتوازنة للإسلام

لقد ضاق الشيخ الإمام بالتصوير الجزئي للإسلام، الذي بخل بـ (النسب) التي أقامها الشرع بين أحكامه وتعاليمه بعضها وبعض، فلم يجعلها في درجة واحدة، لافى المأمورات، ولا في المنهيات، وهو ما أسمينا العلم به (فقه الأولويات) أو فقه (مراتب الأعمال).

«فالإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة، كما صح في الحديث، ولكن الشيخ يتساءل: هل هذه الشعب مركوم بعضها فوق البعض كيفما اتفق؟ هل هي كسلع اشتراها شخص من السوق ثم وضعها في حقيبته كيفما تيسر؟ لا.. إنها شعب متفاوتة الخطر والقيمة ولكل منها وضع عتيد في الصورة الجامعة لا يعدوه.

والشبكة التي تكون شعب الإيمان كلها تشبه الخارطة الموضوعة للجهاز العامل في إحدى الوزارات أو إحدى المؤسسات، هناك مديرون، وهناك مساعدون، وهناك فعلة، وهناك مراقبون، وبين هذه وتلك علاقات مرسومة، ونظم إرسال واستقبال، وتنفيذ وإنتاج...

إن شعب الإيمان التي تعد بالعشرات تشبه السيارة المنطلقة لها هيكل وإطارات وقيادة ووقود وكوابح ومصابيح وكراس وغير ذلك، وكل منها له وظيفته وقيمته.

ومنذ بدأت الثقافة الإسلامية والإيمان أركان ونوافل، وأصول وفروع، وأعمال قلبية وأعمال جسمية.

والذي يحدث عند بعض الناس أن جزءاً ما من الإسلام يمتد على حساب بقية الأجزاء، كما تمتد الأورام الخبيثة على حساب بقية الخلايا فيهلك الجسم كله!

وقد كان الخوارج أول من أصيب بهذا القصور العقلي أو بهذا الخلل الفقهي. قاتلوا علياً أو يتبرأ من التحكيم! وقاتلوا عمر بن عبد العزيز أو يلعن آباءه ملوك أمية!

وسيطرة فكرة معينة على الإنسان بحيث تملأ فراغه النفسي كله، ولا تدع مكاناً لمعانٍ أخرى شيء لا يستساغ!

لقيني رجل من المعروفين بالطيبة وسألني: هل تؤمن بكرامات الشيخ فلان؟ قلت: لم أقرأ سيرة هذا الشيخ. قال: إليك كتاباً يشرح سيرته.. ثم لقيني بعد فترة

وسألني: ما رأيك؟ قلت: نسيت أن أقرأ الكتاب، قال: كيف؟ ــ بانفعال ــ قلت: الأمر غير مهم.. إذا مت وأنا لا أعرف صاحبك، فإن الله غير سائلي عنه، وعن كراماته، فانطلق يشيع عني أني مارق لا أومن بالكرامات..

وقابلني آخر يقول: ما رأيك في الموسيقى؟ فأجبت: فإن كانت عاطفية تثير النشاط أو الرقة فلا بأس.. وإن كانت تثير العبث والمجون فلا.. فانطلق يشيع عني أني متحلل أسمع الحرام!!

كلا الشخصين آمن بشيء حسبه الدين كله، فهو يحاكم الأشخاص والأوضاع إليه وحده.

وهذا التورم الذي يصيب جانباً دينياً معيناً هو السر وراء فقهاء لهم فكر ثاقب وليست لهم قلوب العابدين، ومتصوفين لهم مشاعر ملتاعة وليست لهم عقول الفقهاء.

وهو السر وراء محدثين يحفظون النصوص، ولا يضعونها مواضعها، ولا يجيدون الاستنباط منها.

وأصحاب رأي يلمحون المصلحة، ولا يحسنون مساندتها بالنص المحفوظ.

وهو السر وراء حكام يعملون ــ حسب المواصفات المقرَّرة ــ رعاة للجماهير، وباعهم في تقوى الله قصير، وعامة يعكفون على العبادات الفردية، فإذا بلغ الأمر النصح والزجر والأمر والنهي والتعرض لغضب الحكام لاذوا بالصمت الطويل!

وهو السر وراء أناس يتقنون مراسم العبادة ولا يفرطون ذرة في صور الطاعات الواردة، ومع ذلك لا يعون من حكمتها شيئاً، ولا يستفيدون منها خلقاً.

الصلاة تورث النظام والنظافة، وهم فوضى شعثون.

والحج رحلة العمر التي تعمر القلب والجوارح بالسكينة والرحمة، وهم في أثناء المناسك وبعدها قساة سيئون.

إن الدعوة الإسلامية تحصد الشوك من أناس قليلي الفقه كثيري النشاط، ينطلقون بعقولهم الكليلة فيسيؤون ولا يحسنون.

ماذا يفيده الإسلام من شبان يغشون المجتمعات الأوروبية والأمريكية يلبسون جلاليب بيضاء، ويجلسون على الأرض ليتناولوا الطعام بأيديهم، ثم يلعقون أطراف أصابعهم، وهذا في نظرهم هَدْي الرسول في الأكل، والسنة التي يبدأون ــ من عندها ــ عرض الإسلام على الغربيين؟!

هل هذه آداب الإسلام في الطعام؟

وعندما يرى الأوروبيون رجلاً يبغي الشرب فيتناول الكأس، ثم يقعد وكان واقفاً. ليتبع السنة في الشرب، فهل هذا المنظر الغريب هو الذي يغري بدخول الإسلام؟!

لماذا تُجَسَّم التوافه على نحو يصد عن سبيل الله، ويبرز الإسلام به وكأنه دين دميم الوجه؟

ثم إن الدعوة إلى الإسلام لا يقبل فيها عرض القضايا الخلافية مهما كانت مهمة عند أصحابها، والأكل على الأرض أو بالأيدي مسألة عادية وليست عبادية، ومن السماجة: عرض الإسلام من خلالها، ووضع النقاب على وجه المرأة أمر تناوله الأخذ والرد، ولا يسوغ بحال تقديمه عند عرض دين الله على عباد الله»[1].

(١) الدعوة الإسلامية: ص ٦٨ ــ ٧٠.

تحرير الأمة وتوحيدها

ومن جوانب الإصلاح المهمة عند الشيخ الغزالي: تحرير الأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها من كل سلطان أجنبي يشل إرادتها أو فكرها أو يدها:

ولهذا قاوم الشيخ الاستعمار غربيه وشرقيه، قديمه وجديده، كما قاوم عملاءه وفروخه في ديار الإسلام، الذين ينفّقون فكره، ويتبنَّون خطه، ويسيرون في دربه، من بنى جلدتنا، وممن يتكلمون بألسنتنا.

قاوم الشيخ الاستعمار سواء تمثل في احتلال عسكري أم في تسلط سياسي، أم في تحكم إقتصادي، أم في غزو فكري أو تعليمي أو إعلامي أو إجتماعي.

الاستعمار أحقاد وأطماع

وبيَّن الشيخ أن الاستعمار لا تدفعه (الأطماع) وحدها في خيرات بلاد الإسلام، بل هناك دوافع أخرى كامنة هي (الأحقاد) الموروثة من الحروب الصليبية، بل منذ اصطدم الإسلام بالنصرانية وانتصر عليها في آسية وإفريقية، وأخذ منها بلاداً كثيرة غدت جزءاً مهماً من (دار الإسلام).

وقدم الأدلة على هذه الروح التي ورثت هذا الحقد الأسود من وقائع التاريخ، ومن أحداث الواقع.

يقول الشيخ: «كنا نفكر أن سيطرة الغربيين على بلادنا كانت مجرد غلب القوي على الضعيف، حتى صحونا من منامنا، أو استفقنا من بلاهتنا، فوجدنا

الأوربيين الغزاة يطوون أفئدتهم على جميع المشاعر التي حركت أسلافهم الأقدمين، حين حاربونا باسم (الصليب) زهاء قرنين من الزمان.

إنهم هم هم، بغضاؤهم للإسلام لم تنقض، بل ظلت في نماء، وسخطهم على أهله لا تزيده الليالي إلا ضراماً.

كل ما أفادوه من تقدم علمي في إبّان غفوتنا الأخيرة، أنهم غيروا الوسائل، وأضافوا إليها مقداراً أكبر من الختل والخبث، وطوروا السلاح، ليجعلوه أشد فتكاً، وأوسع هلكاً، حشدوا كل ما لديهم ليجهزوا على الكتاب والسنة، أي على رسالة محمد عدوهم الألد.. ثم ليمزقوا أمته شر ممزق، فيسلطوا عليها من صنوف البلاء ما يجعلها تتعثر في طلب النجاة دون جدوى»[1].

الاستعمار الشيوعي

كما بيَّن الشيخ أن الاستعمار ليس هو فقط الاستعمار الغربي الذي احتل أوطان المسلمين من أندونيسية إلى المغرب الأقصى: بريطانيا وفرنسا وإسبانيا وهولندا وإيطاليا وغيرها، بل يشمل الاستعمار الشرقي الذي هو أحدّ أنياباً وأقوى أظافر، وأشد شراسة من الاستعمار الغربي، أعني الاستعمار الشيوعي: الذي احتل عدداً من الجمهوريات الإسلامية في آسيا: أوزبكستان، وطاجيكستان، وكازاخستان، وأذربيجان.. إلخ، وهي أقطار إسلامية عريقة في إسلامها، ضمها الإتحاد السوفيتي إليه بالحديد والنار، فغدت جزءاً من امبراطوريته خلف الستار الحديدي.

وأبرز ما ظهر فيه موقف الشيخ من الاستعمار الأحمر: كتابه: (الإسلام في وجه الزحف الأحمر) الذي نشر طبعته الأولى في سنة ١٩٦٦م أي في أوج عهد عبد الناصر، وقد كان الشيوعيون في ذلك الوقت لهم سطوة وسلطان، وكانوا

---

(١) كفاح دين: ص ١١١.

ممكنين من جميع أجهزة الثقافة والإعلام، وكانت صلة مصر بالسوفييت وثيقة متينة. لا غرو أن قال الشيخ في مقدمة كتابه هذه العبارات:

«لذلك رأيت أن أكتب هذه الصحائف الحافلة بالحقائق العلمية والتاريخية، وأودعها صرخات قلب غيور على دينه، شفيق على أمته.

وأعرف أنني بكتابتها سأتعرض لعداوات مميتة، ولكن بئست الحياة أن نبقى، ويفنى الإسلام! إن الضربات تنهال من كل ناحية على هذا الدين الجلد! وعلى بعد ما بين الخصوم الضاربين من منازع وغايات، فقد جمعهم حب الإجهاز على الإسلام، واقتسام تركته!

وقد فرض الله على العلماء أن يقولوا الحق ولو كان مراً، وألا يخشوا في الله لومة لائم. وعشاق الحق لا بد أن يحيوا معه، وإلا فبطن الأرض خير لهم من ظهرها.

والأمة التي أعنيها ليست عشيرتي الأقربين، ولا العرب أجمعين.. كلا. إنني أعني الأمة الإسلامية حيث انتشرت في الأرض، ولمس ترابها جبهات الساجدين، وكل منهم يهمس في خشوع: «سبحان ربي الأعلى».

هذه الأمة التي أحاط بها الطامعون والحاقدون هي الأمة التي أحذر عليها، وأعمل لها»[1].

لم ينس الشيخ في كتاباته ومحاضراته وخطبه الأمة الإسلامية، ولم يغفل يوماً عن قضاياها، بل كان هو المحامي الدائم عن قضاياها، والمدافع العنيد عن مظالمها، والمحرض المستمر لها لمواجهة أعدائها، وإبطال مكايدهم.

وكتبه شاهدة على ذلك: الاستعمار أحقاد وأطماع.. الإسلام في وجه الزحف الأحمر.. ظلام من الغرب.. وغيرها.

---

(١) من مقدمة كتاب: الإسلام في وجه الزحف الأحمر.

قضية فلسطين

وفي مقدمة القضايا الإسلامية التي تبناها الشيخ واحتلت بؤرة شعوره، وصميم قلبه وفكره، وعد نفسه حارساً لها بقلمه ولسانه ووجدانه: قضية فلسطين، أرض الإسراء والمعراج، والمسجد الأقصى، وأولى القبلتين.

واهتمامه بقضية فلسطين يأخذ وجهتين

الأولى: تحريك الأمة الإسلامية، لتنهض بواجبها في الدفاع عن أرض المقدسات، ونسيان ما بينها من خلاف لتقف صفاً واحداً، ضد العدوان اليهودي المغتصب.

والثانية: المقارنة بما تصنعه إسرائيل ويهود العالم: من تخطيط وتنظيم وبذل وتعاون، وكيف استخدموا علوم العصر، وتكنولوجياته المتطورة، في خدمة دولتهم، لتكون هذه المقارنة ذريعة لنا عسى أن نغير ما بأنفسنا، ملتمسين العبرة من عدونا.

وقف الشيخ بقلمه ولسانه مع قضايا المسلمين في العالم، مع الإسلام في كل مكان: الإسلام الجريح في الحبشة[1]، الإسلام المقاتل في كشمير والفلبين[2]، الإسلام المقاوَم في فلسطين.. وفي البوسنة والهرسك.. الإسلام الصامد في أندونيسيا، وفي بنجلاديش في آسيا، وفي نيجيريا والصومال في إفريقيا: أمام موجات التنصير والعلمانية، الإسلام الذي يقاوم التغريب والعلمنة في تركية وفي البلاد العربية..

---

(١) انظر: حديث عن (مأساة المسلمين في الحبشة) في كتابه: كفاح دين، فصل (حكومات مسيحية لشعوب مسلمة) وفصل (ذئاب الحبشة تنهش الإسلام).

(٢) انظر: أحوال المسلمين في الفليبين، في كتاب: علل وأدوية: ص ٢٠٩ ــ ٢١١.

وقف الشيخ مع اللاجئين المشردين من أبناء الإسلام في أنحاء العالم: من أبناء بورما وتشاد والصومال وأريتريا وغيرهم..

لقد وقف الشيخ مع كل قضايا المسلمين، بحيث تستطيع أن تقول: إنه (محامي الأمة الإسلامية) حيثما كان لها قضية.

توحيد الأمة بعد تحريرها

ولا يقف الشيخ عند قضية التحرير، بل لا بد من العمل على (توحيد الأمة) كما أمر الله سبحانه، فهي (أمة واحدة) وليست أمماً، وعندها من عوامل التوحيد ما يقرب بينها. العقبة الكأداء في سبيل وحدتها هو ما صنعه الاستعمار من أنظمة وثقافات ومناهج وأفكار، باعدت بين شعوب الأمة، وخصوصاً بين حكامها وقادتها..

ويرى الشيخ أن إعادة الخلافة الإسلامية فرض عين على الأمة، وهي لازمة شرعاً وواقعاً لتبليغ الدعوة إلى العالم وحمايتها، والدفاع عن المستضعفين من المسلمين، وعن قضايا الإسلام في أنحاء الأرض.

يقول الشيخ في ألم وأسى: «إن قلبي يتفطر عندما أرى الدم الإسلامي أرخص دم على الأرض.. لقد استباحه المجوس واليهود والنصارى والوثنيون والملحدون.. وحكام مسلمون!!

ولا ريب أن المدافعين عن الإسلام تكتنفهم ظروف صعبة معقدة، غير أنه بين الحين والحين ينبجس من روح الله ندى يواسي الجراح، ويهون الكفاح، ويبشر بالصباح..

ومهما كانت الأوضاع محرجة فلا بد من بقاء الدعوة الإسلامية مرفوعة الراية، واضحة الهداية، تعلن الحق وتبسط براهينه، وتلقف الشبه وتوهي إسنادها..

إن محمداً ليس وقفاً على عصر أو جنس، إن رسالته للقارات الخمس ما بقي الزمان، وعلينا أن ننهض بهذا العبء..

وحتى تعود «الخلافة الإسلامية» ــ وإعادتها فرض عين لتتولى هذه المهام يجدر بنا أن نتبع ما يأتي...»[1]. ويذكر الشيخ هنا جملة من المقترحات النافعة.

مسؤولية الخلافة عن الدعوة في العالم

وفي موضع آخر تحدث الشيخ عن (الدعوة الإسلامية والحكام والخونة) وقال في مقدمة هذا الفصل:

«المسلمون مكلفون بنشر دينهم في القارات الخمس. ويجب أن تكون لديهم أجهزة متخصصة تعرّف العالم كله: مَن محمد؟ وما رسالته؟ ما الذي ينشده للناس كي يسعدوا في معاشهم ومعادهم؟

يجب أن تكون تعاليم الإسلام تحت أبصار الناس قاطبة، فمن شاء قبلها، ومن شاء ردها، المهم أن يعرفها على حقيقتها، وأن يزول الجهل بها، وألا يكون الدخان الذي أطلقه أعداؤها حائلاً دون هذا الإدراك الواعي السليم.

وقد كانت «الخلافة» الكبرى مسؤولة عن ذلك، إذ كانت رمزاً للإسلام، وشاخصاً عالمياً يلفت الأنظار إليه، ويذود الأعداء عنه.

ومع أن «الخلافة» عندما تولاها الجنس التركي قد أصبحت شبحاً عليلاً، ومع أن الخلفاء الأتراك كانوا أقرب إلى السلاطين الجبابرة منهم إلى أمراء المؤمنين وحراس اليقين ودعاة الحق وهداة الخلق!! مع ذلك كله فإن وجود الخلافة فيهم كان له أثره في وحدة المسلمين، وتقليل الخسائر النازلة بهم من هنا وهناك.

وحسبنا أن نشير إلى موقف السلطان «عبد الحميد» من فلسطين، فقد ساق

---

(١) قذائف الحق: ص ١٤٨.

إليه اليهود قناطير الذهب ليسمح بوجود يهودي فيها، فأبى الرجل إباء قطع كل محاولات الإغراء، وأحبط جميع المؤامرات لشطر العالم الإسلامي بهذا العنصر الغريب.

ولما كان لوجود «الخلافة» من آثار مادية وأدبية بعيدة المدى فقد كان هم العالم الصليبي أن يجهز عليها، وقد استطاع أن يبلغ غرضه بعد الحرب العالمية الأولى مستغلاً أطماع القائد التركي «مصطفى كمال» الذي باع الإسلام والمسلمين من أجل البقاء رئيساً للدولة التركية الجديدة!!

إن الشروط الأربعة التي عرضها «الحلفاء» المنتصرون عليه هي أن يقطع صلة تركيا بالعالم الإسلامي وبالعرب خاصة، وأن يلغي نظام الخلافة، وأن يحكم الشعب بدستور تقدمي مبتوت الصلة بالدين»[1].

تذويب الفرق المنشقة عن الأمة

وللشيخ الغزالي رأي له أهميته في وجوب تذويب الفرق المنشقة عن الجماعة والأمة الإسلامية، نسجله هنا. يقول شيخنا:

«في الأمة الإسلامية الآن فرق تذكرنا بمذاهب الباطنية وفلسفاتها الدخيلة التي نجحت قبل ألف عام، هناك النصيرية، والدروز، والإسماعيلية ــ الأغاخانية وأمثال أولئك جميعاً ممن ينتمون إلى الإسلام انتماءاً غامضاً.

وقد يزعمون أنهم مسلمون شيعة! بيد أن جماهير الشيعة ترفضهم وتتنكر لهم...

إنهم سلالات باطنية تلبس الإسلام على خليط من الأفكار التي لا إسناد لها، وهم في نظري ضحايا الإهمال الغريب من الدولة والأمة معاً..

---

(١) المصدر السابق: ص ١٣٥.

لماذا تمر القرون الطوال وهؤلاء الناس معزولون داخل دار الإسلام على هذا النحو المتوارث؟

أكثر من ألف عام والحكم الإسلامي غير مكترث بالتجميد الأدبي لألوف مؤلفة من الناس تعيش في صميمه، لا هم منه ولا هم من عدوه.. !! إن هذا الخطأ لا بد أن يوضع له حد، ولا بد من التعفية على آثاره.

ولدت الباطنية ونمت في الفراغ الحقيقي الذي كان موجوداً بين الحكام والشعوب. أغلب الحكام كان جائراً جاهلاً وإن لبس برد الخلافة أو لاذ بمن يلبس هذا البرد..

وتعلقت القلوب بمنقذ من آل البيت، ينسخ الجور ويؤنس المستوحشين.

وحول هذا الأمل الحبيب تكونت في الظلام عصابات، لم تجد لها في وضح النهار مكاناً.

وحول قليل من الحق تكونت مذاهب مستوردة من الهندوسية والمجوسية واليونانية وغيرها، فكان التفكير الباطني، وكانت شعبه العديدة.

نصوص من القرآن يتم تفريغها من محتواها الصحيح، لتحل محله أوهام المستغلين، وخيالات ما أنزل الله بها من سلطان!

واتسعت دائرة المخدوعين المستَغلين خصوصاً في القرنين الثالث والرابع، وبلغ من سطوة الباطنية أن إحدى فرقهم انتزعت الحجر الأسود من مكانه في الكعبة المشرفة، فلم يعد إلا بعد نيف وعشرين سنة بشفاعة فرقة أخرى![1].

وإذا كان ذلك عجيباً فإن رد الفعل أعجب لدى الحاكمين والمحكومين على سواء.

---

(١) يقصد الفاطميين في مصر.

ولقد استيقنت ــ وأنا أقرأ هذه الصحائف السود ــ أن نظام الحكم من قديم كان القشرة العفنة في كياننا كله.

ولقد نهض عدد كبير من العلماء بدحض الفكر الباطني وفضح خرافاته حتى انصرف عنه جمهور العقلاء، وانكسرت حدته السياسية انكساراً تاماً.

لكن حكام المسلمين ــ في غيبوبتهم الفكرية ــ لم يكملوا ما بدأه العلماء المجاهدون، بل لقد خيل إلي أنهم جمّدوا ــ عن عمد ــ بقايا الباطنية، مع أن قضاياها أمست بلا موضوع.

وجمهور المنتسبين إلى هذه الفرق انقطع عن المنابع التي كانت تمدّه في القديم، وبقيت نسبته إلى الإسلام أبرز في وعيه من النسبة إلى أفكار أخرى.

والخطوة التالية والواجبة أن يستلحق الكيان الإسلامي الكبير هذه الطوائف التي اقتطعت منه لظروف مؤسفة، يستطيع بالتعليم الموصول والإعلام الدائم أن يجعل راية الكتاب والسنة ترفرف عليها وعلى جميع المسلمين.

نعم، فليس لهذه الطوائف دين تنتسب إليه إلا الإسلام ــ كما يقولون ــ وليست لها فلسفات عقلية أو اجتماعية تمثل مذهباً مستقلاً في الحياة، وربما كانت الروابط التي تمسك أبناءها روابط قبلية، أو عصبيات جنسية. وخطأ الجماعة الإسلامية في الحفاظ على كيانها الكبير لا يجوز أن يستمر بعد اليوم.

لقد دخل الصليبيون الأندلس فلم يبقوا فيه إلا مذهباً واحدا هو «الكثلكة».

وسيطر الإسلام على ما يسمى الآن «الشرق الأوسط» وبقي فيه أربعة عشر قرناً، ومع ذلك فإن الطوائف الكثيرة لا تزال تكون فيه عصبة أمم!!

ربما كان ذلك شاهداً على ما انفرد به الإسلام من سماحة مستغربة في التاريخ البشري الحافل بفنون التعصب. لكن هذه السماحة لا يسوغ أن تتحول إلى فتوق تأتي عليه من القواعد، وتأذن للخيانات والمخادعات أن تنال منه.

وعلى الجماعة الإسلامية أن تدفع عن وجودها بالوسائل العادية التي فاتتها من قديم، أي أن عليها تذويب هذه الفرق كلها في الكيان العام»[1].

مبادىء للتصالح بين السنة والشيعة

كما يرى شيخنا الإمام أن أوضاع المسلمين الراهنة، والأخطار المحدقة بهم، وتداعي الأمم عليها من كل أفق، كما تتداعى الأكلة على قصعتها، كل ذلك يوجب الدعوة من عقلاء أهل السنة والشيعة إلى التصالح والتضامن بين الفريقين لمواجهة التحديات. وفي ذلك يقول:

«من الخلافات الموروثة: ما بين الشيعة وأهل السنة من فجوات ملأتها الدماء في بعض الأعصار، وزادها البهت والافتراء بين الحين والحين!

وما أنكر أن أسباباً علمية وعاطفية تخفى أو تظهر وراء هذا الخلاف، بيد أن للسياسة ومطالب الحكم أسباباً أخرى وأنمى.

وقد تحدثت في كتب أخرى عن حقيقة ما بين الفريقين من الناحية العلمية، ولا مجال هنا لتفصيل أو زيادة. وأعترف بأن لي أصدقاء من الشيعة أعزهم وأحبهم.

ومن أجل ذلك أعرض هذه المبادىء لدفع الأمور إلى طريق التصالح والإخاء:

(أ) يتفق الفريقان في مؤتمر جامع على أن القرآن الكريم هو كتاب الإسلام المصون الخالد، والمصدر الأول للتشريع، وأن الله حفظه من الزيادة والنقص وكل أنواع التحريف، أن ما يتلى الآن هو ما كان يتلوه النبي ﷺ على أصحابه، وأنه ليس هناك في تاريخ الإسلام كله غير هذا المصحف الشريف.

---

(١) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين: ص ١٤٤ ــ ١٤٦.

(ب) السُّنَّة هي المصدر الثاني بعد القرآن الكريم، والرسول أسوة حسنة لأتباعه إلى قيام الساعة، والإختلاف في ثبوت سنة ما أو عدم ثبوتها مسألة فرعية.

(ج) ما وقع من خلاف بين القرن الأول يدرس في إطار البحث العلمي والعبرة التاريخية، ولا يسمح بامتداده إلى حاضر المسلمين ومستقبلهم، بل يجمّد من الناحية العملية تجميداً تاماً، ويترك حسابه إلى الله وفق الآية الكريمة: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤١].

(د) يواجه المسلمون جميعاً مستقبلهم على أساس من دعم الأصول المشتركة ــ وهي كثيرة جداً ــ وعلى مرونة وتسامح في شتى الفروع الفقهية ووجهات النظر المذهبية الأخرى.

إنني لا أستطيع خلال سطور، أن أحل مشكلة تراخت عليها العصور، لكنني ألفت النظر إلى أن أوهاماً وأهواءً تملأ الجو بين الشيعة وجماعة المسلمين لا يسيغ العقلاء بقاءها.

ولو وضع كل شيء في حجمه الطبيعي، وأغلقت الأفواه التي تستمرىء الوقيعة والإفك لتلاشت أنواع من الفرقة لا مساغ لوجودها.

وإني إذ أرسل هذه الكلمات إلى إخواني في كل قطر، أستشعر الخطر الذي يكتنف المسلمين هنا وهناك، وكثافة القوى التي تتجمع في هذه الأيام للإجهاز عليهم، واستئصال شأفتهم.

لقد اتفقت أحزاب أهل الكتاب وأحزاب الوثنية، وأحزاب الماديين، جميعاً على استئصال شأفتنا، فإلى متى نتفرق؟!

لماذا يتباعد أتباع المذاهب الفرعية؟

لماذا تُجتّر خلافات بين السلف، وتُمنح القدرة على الحياة والأذى؟»[1].

---

(١) المصدر السابق: ص ١٤٧، ١٤٨.

٧ ـ الدعوة إلى التقدم والخروج من التخلف

ومما أخذ من عناية الشيخ الغزالي جانباً غير قليل: دعوته الدائبة إلى استخراج الأمة من دائرة التخلف، والعمل على إلحاقها بركب التقدم البشري الصاعد أبداً إلى الأمام.

إن التأخر ليس من طبيعة هذه الأمة ولا من لوازم تدينها، فقد كانت هذه الأمة هي الأمة الأولى في العالم كله، قرابة ألف عام، وكانت حضارتها هي الحضارة الغالبة والسائدة، وكان علماؤها في كل فرع من العلوم هم قادة العُلم والفكر في الدنيا القديمة.

ومن ذا الذي يجحد ما قدمه أمثال ابن حيان في الكيمياء، وابن الهيثم في الفيزياء، والخوارزمي في الجبر، والبيروني في الرياضيات، والرازي وابن سينا والزهراوي وابن النفيس في الطب، وابن رشد في الطب والفلسفة؟

ومن ينكر ما قدمه المسلمون للعالم بإقرار المنهج الإستقرائي التجريبي، إقراره عملياً في شتى العلوم الطبيعية والكونية، والدفاع عنه نظرياً بنقد المنهج الصوري القياسي، الذي قام على أساس المنطق الأرسطي؟[1].

ومن هنا اقتبست أوروبا من الحضارة الإسلامية المنهج التجريبي، وأسست عليه نهضتها، كما شهد بذلك شهود منصفون من أهلها، أمثال بريفولت وغوستاف لوبون، وجورج سارطون.

---

(١) نقد الإمام ابن تيمية منطق أرسطو نقداً علمياً، وانظر: كتاب: مناهج البحث عند مفكري الإسلام ونشأة المنهج العملي في العالم الإسلامي: للدكتور علي سامي النشار.

فالتخلف ــ إذن ــ طارىء على الأمة، وعلة عارضة لها، وليست من طبيعتها ولا طبيعة دينها الذي جعل منها من قبل خير أمة أخرجت للناس، وبوأها مكان الأستاذية للبشرية كلها.

وحرام على الأمة المسلمة أن تظل في مؤخرة الأمم في مجال العلم والعمران والتكنولوجيا، ومكانها الطبيعي أن تقود هي القافلة!

وهذا ما شغل فكر الشيخ الغزالي، وكوى قلبه بنار الأسى على مصير الأمة القائدة: أن تنتهي إلى هذا الوضع الذي صارت إليه اليوم: تستورد ولا تنشىء، تستهلك ولا تكاد تنتج إلا التوافه، حتى قُوتها اليومي لا تنتج منه ما يكفيها، برغم خصوبة أراضيها، وحتى سلاحها الذي تذود به عن بيضتها، بل تشتريه من غيرها بشروطه طبعاً!

عجز الأمة عن توفير غذائها

لأسباب شتى أخذت أمتنا تتراجع أمام خصومها، وتترنح تحت ضربات موجعة، وظهر عجزها عن تبليغ رسالتها، بعد عجزها عن العمل بها بداهة، وعجزها عن حماية نفسها؛ لأنها لم تعد تصنع السلاح الذي يحميها.

وتبع ذلك عجز أنكى وأخزى، هو عجزها عن صنع رغيفها الذي تأكله.

يقول شيخنا: «وقد قرأت أنباء (ندوة الغذاء العربي) التي انعقدت في دمشق، واستوقف بصري عنوان كبير (٧٧٪ من قمح رغيف الخبز في الأقطار العربية مستورد!، سنة ٢٠٠٠ يستورد العرب غذاء قيمته ١٢٠ مليار دولار)..

يقول المحرر: لندخل في التفاصيل. لقد وصلت تكلفة المستوردات العربية للمنتجات الغذائية سنة ١٩٨١ إلى ٥ و٢٢ مليار، أي أنها تضاعفت أكثر من اثنتي عشرة مرة خلال اثني عشر عاماً.

أما الصادرات في العام نفسه فلم تتجاوز ٥ و٣ مليار دولار، أي أن العجز في الميدان الغذائي وحده بلغ ١٩ مليار دولار..

ثم قال المحرر: إننا ننحدر عاماً بعد عام (!) فإن نسبة الاكتفاء الذاتي من الحبوب في أوائل السبعينات كانت ٨٤٪، ثم هبطت في نهاية هذا العقد إلى ٦٠٪، وكانت نسبة الاكتفاء الذاتي في السكر ٤٠٪ وفي المنتجات الحيوانية انخفضت النسبة من ٨١٪ إلى ٦٥٪، حتى القطن الذي كان لدينا من أهم المحاصيل الزراعية انخفضت نسبة الاكتفاء الذاتي فيه من ٢٤٠٪ إلى ١٩٠٪».

ثم قال: «... والوطن العربي يستورد ١٧٪ من صادرات القمح العالمية، و١٥٪ من صادرات الأرز العالمية، و٤٠٪ من صادرات الأغنام في العالم، و٥٣٪ من الصادرات العالمية لزيت بذرة القطن، و١٢٪ من زيت عباد الشمس، و١٣٪ من الألبان المجففة..».

لم هذا الإستيراد كله؟ ولماذا لا ينتج العرب ما يستهلكون؟ وما نتيجة اعتمادهم على غيرهم فيما يأكلون؟

النتيجة نفهمها من قول وزير الزراعة الأمريكي سنة ١٩٧٥ لمجلة «دير شبيغل» الألمانية: «السلطة في العالم تتركز في موردين لا ثالث لهما، هما النفط والغذاء، وسلطة الغذاء أشد قوة! ولهذا يصبح الغذاء أخطر مكانة وأعظم أثراً في تعاملنا مع ثلثي سكان الأرض..».

ونضيف نحن أن الذين يملكون موارد الغذاء هم الذين يحمون موارد النفط لضمان مصالحهم. وقد أكد أكثر من مسؤول أمريكي أن الولايات المتحدة حريصة عن تقديم مساعداتها للدول النامية على أن تكون مصحوبة بشروط تحقق المصالح الأمريكية الثقافية والسياسية..

نقول: وكذلك المصالح الصهيونية والصليبية، فإن خصوم «إسرائيل» لا يجوز أن يحصلوا على دولار واحد! وكذلك خصوم التبشير الاستعماري والغزو

الفكري، ليس من حق صاحب اليد السفلى أن يعترض على السادة في قليل أو كثير، إلا أن يكون الاعتراض من باب التمثيل أو من قبيل الإستهلاك المحلي.

إن المتخلفين صناعياً وحضارياً ليس لهم أن يغالوا بعقائدهم وشرائعهم ليس لهم أن يحتفظوا بمعالم شخصيتهم. يجب أن يفتحوا أبوابهم لكل ما هو أجنبي، وأن يتواروا خجلاً بكل ما هو قومي ووطني»[1].

أسباب تخلف الأمة

صنَّف الشيخ الغزالي كتاباً في (سر تأخر العرب والمسلمين) لا أجده أمامي الآن، ولكني وجدت الشيخ في كتاب آخر تحدث بإسهاب عن (أسباب انهيار الحضارة الإسلامية)، وأحسب أنها تصلح أسباباً لتأخر الأمة أيضاً وتخلفها.

حصر شيخنا الإمام هذه الأسباب في تسعة أساسية، نتحدث عنها إجمالاً فيما يلي:

١ ــ سوء الفهم للإسلام، وتقديم ما حقه التأخير، وتأخير ما حقه التقديم، وشيوع خرافات باسم الدين مثل قراءة البخاري عند الأزمات، لا اتخاذ الأسباب وفق السنن، كما حدث في استقدام بعض المشايخ لقراءة البخاري في سفن الأسطول التركي للبركة، فعلق بعض الظرفاء فقال: إن السفن تسير بالبخار لا بالبخاري!. وقبل معركة التل الكبير أقام أحمد عرابي باشا حفل ذكر، كي ينصره الله على الإنجليز وكانت النتيجة أن انهزم بعد معركة استغرقت ثلث الساعة!

٢ ــ وقوع الخلل الكبير في الثقافة الإسلامية، التي هي الغذاء الفكري والروحي للأمة، والتي تصنع عقولها وأذواقها وإراداتها.

وهذا سنعرض له بتفصيل في المبحث القادم.

---

(١) انظر: الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، ص ١٤٨ ــ ١٥٠.

٣ ــ جهل المسلمين بالدنيا: وهذا ناشيء عن اختلال الثقافة. يقول الشيخ: قد استطاع ناس كثيرون أن يعرفوا من دراسات الأرض والسماء ما جعل أيديهم باطشة، وأسلحتهم فاتكة، فأين منزلة المسلمين من هؤلاء؟ يقول الشيخ: عندما كنت أقرأ الهجوم الفرنسي على مصر في القرن الثالث عشر للهجرة، كنت أحس طنيناً في دماغي لكثرة ما سفك من دمائنا دون جدوى. كان الفرسان الشجعان يذوبون أمام المدافع الحديثة، والذخائر الخبيثة. وكانت خبرة الفرنسيين بالحياة وعلومها وكشوفها تساعدهم على التوغل بقدرة، وترغم الأحرار على الفرار أو الموت الرخيص! لماذا جهلنا الحياة وبحوثها على هذا النحو؟ إن العلم الواسع بالدنيا، والقدرة التامة عليها، كانت أموراً بديهية عند أسلافنا.

٤ ــ انتشار الجبرية في العالم الإسلامي: فالإنسان مسير لا مخير، والمرء لا حول له ولا طول، ولا قدرة ولا إرادة. ومن أين له والقدر يحركه ذات اليمين وذات الشمال برغمه؟

كريشة في مهب الريح حائرة لا تستقر على حال من القلق

فالغنى والفقر، والسعادة والشقاء، والنجاح والفشل: حظوظ مقسومة، وأنصبة مكتوبة، والمكتوب ما منه هروب! وبذلك اهتزت الشخصية المسلمة، وسيطر عليها لون من التسليم والسلبية.

وسبب ذلك فيما يرى الشيخ: علم الكلام، وعلم التصوف، وبعض مفسري القرآن، وشراح السنن. وانضم إلى ذلك ضعف الصلة بين الأسباب والمسببات، وانتشار فكرة الكرامات وخوارق العادات، حتى كادت تبطل السنن الإلٰهية التي أقام الله عليها هذا الكون.

٥ ــ تقاليد الرياء في المجتمعات الإسلامية: فقد كان السلف أسلم الناس فطرة، وأصفاهم طبيعة. جعلوا الله ورضوانه غايتهم، والرسول أسوتهم، فيما يفعلون ويتركون.

أما مسلمو العصور الأخيرة، فقد استحدثوا في حياتهم تقاليد كثيرة، تقوم على التكلف والتزويق والتظاهر الزائف، وتبتعد عن فطرة الإسلام السمحة السهلة. لما تأيمت حفصة بنت عمر لم ير الأب غضاضة في أن يفاتح صديقه أبا بكر في الزواج منها، وكذلك عثمان، بحكم عاطفة الأبوة.

واليوم وقبل اليوم يجيء الخطَّاب للبنات فيرفضهم الآباء، لا لشيء إلا لتحكيم تقاليد بالية، يرفض فيها من يرضى دينه وخلقه. وتغلق البيوت على عوانس كثيرات بائسات يائسات! إن الربا شرك. وهذا الشرك سيطر على أعراف وعادات جعلت المسلمين يرقب بعضهم بعضاً ويتَّقي بعضاً. وجعلت الرجل ــ باسم كرامته أو كرامة الأسرة التي ينحدر منها ــ يعيش طول عمره وفق أوضاع وقيود من صنع الاستعلاء والتزمت.

إن الأمة المسلمة في القرون الأخيرة جمعت الكثير من الجاهليات في مسالكها الخاصة والعامة: في نفقاتها، في صداقاتها، في أحزانها وأفراحها، في علاقاتها بحكامها، ولم تكن تفسيراً عملياً لأحكام الإسلام وحدوده، وفطرته وسماحته.

٦ ــ وضع المرأة في عصور الضعف: منعت المرأة من التعلم بناءً على حديث مكذوب: «لا تعلموهن الكتابة» وآخر واه جداً: «ألا ترى رجلاً ولا يراها رجل».

وحرمت من الذهاب إلى المسجد بناء على مرويات أخر، تخالف المتواتر والصحيح من السنن، فأقفرت منهن بيوت الله، وانقطعن من التوجيه الديني، فلا قرآن ولا حديث ولا فقه... وبذلك أصبحت المرأة المسلمة دون غيرها من نساء العالم أقل ارتباطاً بالدين، واتصالاً بالمجتمع. فاضطرب حبل التربية في العالم الإسلامي اضطراباً شديداً.

٧ ــ ذبول الأدب العربي: فعندما ضعف المسلمون أصاب ملكاتهم الأدبية

ضمور شائن، فانحط الشعر والنثر. وقل الأدباء المصورون، كما قل المؤلفون والمفكرون.

ونظرة إلى الأدب ورجاله منذ القرن السادس تجعلنا نشعر بهذه الحقيقة... وانكمش الأدب شعراً ونثراً انكماشاً يثير الاشمئزاز.

٨ ــ سياسة المال في المجتمع: فقد اضطربت سياسة المال، وساء تداولها في المجتمع الإسلامي، ونشأ عن ذلك فقر مدقع، وترف مفسد. ورغم أن الإسلام هو أول من سير الجيوش لأخذ حقوق الفقراء من الأغنياء الباخلين، فإن أغلب الحكام لم يهتم بهذا الجانب، وتعرضت جماهير الفقراء لضيم كبير. كما انتشرت الرشوة ــ وخصوصاً بين الكبار ــ برغم لعن النبي ﷺ للراشي والمرتشي. وانتشرت البطالة الصريحة والمقنعة، وامتلأ العالم الإسلامي بالطامعين الكاسين من فضول أموال، لا يدري كيف نبتت أصولها. وقد تحدثنا عن هذا الموضوع في مبحث خاص.

٩ ــ الفساد السياسي: ففي الحديث: «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»[1]، وما وسد الأمر إلى أهله، وما حاول الذين وسد إليهم الأمر أن يرتفعوا إلى مستواه، ولا قنعوا مادياً وأدبياً بالعيش في نطاقه المحدود.

أهملت الشورى في الحكم، مع أن الإسلام قرر أن المجتمع يقوم على التناصح، والتواصي بالحق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتعاون على الخير، ورفض الإعجاب بالرأي، والافتيات على الجماعة. كما بدا العجز الإداري للدولة عجزاً فاضحاً. وفقدت الأجهزة المسؤولة عن الدعوة في الداخل والخارج، فلم يحدث أن انعقد مؤتمر يبحث عن أسباب سقوط القدس، أو بغداد أو الأندلس، ويأخذ العبرة منها للمستقبل. ومع الغفلة عاشت ــ داخل الكيان

---

(١) الحديث رواه البخاري في العلم (٥٩) عن أبي هريرة، وفي الرقاق (٦٤٩٦) عن أبي هريرة أيضاً.

الإسلامي ــ فرق دينية أبطنت الخيانة والمروق، وظلت تنتظر الفرصة لضرب الإسلام وطعن أمته في ظهرها. . وقد تحركت هذه في زحف الاستعمار وكانت له عوناً على الأمة الغافلة[1].

طريق الأمة للخروج من التخلف

يرى شيخنا أن طرد المسلمين من أماكن القيادة العالمية لم يكن ظلماً نزل بهم، بل كان العدل الإلٰهي مع قوم نسوا رسالتهم، وحطُّوا مكانتها، وشابوا معدنها بركام هائل من الأهواء والأوهام في مجالَيْ العلم والعمل على سواء ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٥١ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ﴾ [الأنفال: ٥١، ٥٢].

ولم يكن أعداء الإسلام نياماً! لقد انتهزوا الفرصة، وبلغوا ما بلغوا!! وأحب أن أحدد الأوضاع السليمة لعلاقاتنا بديننا، كما أحب أن أحدد الأوضاع السليمة لعلاقتنا بدنيا الناس. .

إن أولي الألباب يرفضون أن تكون العودة إلى الإسلام عودة إلى الأيام العجاف من تاريخه، ويرفضون أن تكون هذه العودة امتداداً لتعصب في فقه الفروع، ينصر مذهباً على مذهب أو قولاً على قول، مع تجاهل الآثار الإجتماعية لهذا التجميد.

إن الإسلام دين مضبوط الأصول محكم الشرائع، ولا نقبل أن يعبث به المعلولون ووعاظ السلاطين، هواة الاستبداد السياسي.

أما صلتنا بالدنيا فيجب أن تتسع دائرتها إلى أبعد الحدود، وأن نهجر أخطاءنا إلى صواب غيرنا، وألا نستحي من التعلّم والاقتباس، وأن نحث الخطى إلى الأحسن حيث كان في شرق أو غرب. .

---

(١) انظر الدعوة الإسلامية: ص ٦٥ ــ ٩٢.

وفي ميدان الوسائل المرنة للأهداف الثابتة أرى أن خدمة مبدأ الشورى بالوسائل الغربية أفضل من خدمته بالوسائل العربية. . .

أما في ميدان الزراعة والصناعة فإن تخلفنا البادي يفرض علينا أن نكون تلامذة، وأن نطلب هذه العلوم من الغرب أو الشرق على سواء. . .

ومحمد علي باشا ــ رأس الأسرة المالكة السابقة ــ لم يخطىء حين أرسل البعوث إلى أوروبا لنقل تفوقها الصناعي والعلمي، وإنما أخطأ أفحش الخطأ حين جعل ذلك لخدمة أطماعه في إقامة دولة عَلَوية، يملك فيها مصر هو وأسرته من بعده. كما أخطأ حين تجاهل الإسلام، ورنا ببصره إلى فرنسا ينقل منها التشريع والتقاليد. .

وخطيئة محمد علي باشا تبعه فيها زعماء معاصرون يدَّعون التقدمية، وأدباء صحافيون من أمثال طَه حسين، ورؤساء ثورات عسكرية ظاهرها التحرر، وباطنها التبعية الكافرة للغرب الصليبي أو الشرق الشيوعي. .

من قال أن تصحيح أخطائنا المدنية يتطلب ترك الإسلام؟ إن هذا منطق العاملين لمصلحة إحدى الجبهتين الكبيرتين، وليس منطق العاملين لأمتهم بأية حال. . .

نحن نرفض استيراد الإلحاد والتحلل باسم استيراد العلم والمدنية! ما علاقة هذا بذاك؟

جهدنا يتوزع على جبهتين متوازيتين: إحداهما تقوم على تصحيح الوعي الديني والأخرى تنعشنا من الإغماءة الطويلة التي غبنا فيها عن الدنيا، فبقينا في موضعنا وغزا غيرنا الكواكب. .

وأعرف أن الغزو الثقافي سوف يحاول مخادعتنا عن عقائدنا وشرائعنا، وربما ظن أنه يبيعنا تقدمه الصناعي باستلاب تراثنا كله، وتحويل المسلمين إلى

شعوب باحثة عن الطعام والجنس، زاهدة في الوحي الذي شرفها الله به ودون هذا الموت!

وقد وضع الأستاذ خلدون حمادة أربعة شروط للإستفادة من الحضارة الغربية، ختم بها محاضرته التي أشرنا إليها، ونرى إثباتها هنا:

١ ــ يجب أن يتم الاقتباس بشكل إرادي واع، وعن طريق الإنتقاء كما يلائمنا، فنأخذ ما نراه أوفق لنا وندع غيره، ونضع ما نقتبسه في مكانه الصحيح من حياتنا.

٢ ــ ولنعلم أن الاقتباس يتم لمصلحة المقتبس لا لترسيخ قدم المقتبس عنه، وتمكينه من أعناقنا، كما يأمل الاستعمار الثقافي.

٣ ــ أن يقع ذلك على جرعات متراخية، ونظام رتيب يُيَسِّر النفع ويمنع الأزمات الحضارية، والاختناقات الإجتماعية، وعقد النقص التي قد تعتري المقتبسين.

٤ ــ ولا بأس بين الحين والحين أن نراجع ما قلنا وما أفدنا، وأن نحسب مدى الربح والخسارة في هذا التلاقي الحضاري، وذلك على ضوء ما نقدس من كتاب ربنا وسنة نبينا.

لقد سبقتنا اليابان إلى هذا اللون من الاقتباس ونجحت، واستطاع الشيوعيون أن يستفيدوا من العلم الغربيّ، مع بقائهم أعداء للرأسمالية الغربية، واستطاع الأوروبيون في العصور الوسطى أن يأخذوا العلم عن آبائنا، فأخذوا كل شيء، ونقلوا إلى بلادهم مكتبات ملأى بنفائسنا، وأحسنوا الانتقال إلى عصر الإحياء ثم استداروا إلينا ليستعبدونا!

ونحن يجب أن ندفع ضريبة تكاسلنا، وما يفكر في الانتحار الأدبي إلا أحمق.

والناس تقسم طلاب الإصلاح في عصرنا إلى قسمين: المحافظين على القديم والمتطلعين إلى الجديد ــ وهذه قسمة ساذجة ــ وقبل أن نعترف بها نريد أن نسأل المحافظين: ما الذي تحتفظون به؟ ما كل قديم يستحق البقاء! ونسأل المتطلعين إلى الجديد: ما الذي تريدون اقتباسه أو نقله؟ فما كل جديد يستحق الاحترام!

إن ولاء المسلم لشيء واحد، هو الوحي الأعلى! أما ما ألقاه الشيطان في هذا الوحي فهو دبر آذاننا وتحت أقدامنا، وسيتحقق فيه الوعد الإلٰهي: ﴿. . . فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الحج: ٥٢]،

وكذلك ما استحدثه فلاسفة المذاهب الحديثة وزاحموا به الإسلام في دياره، منتهزين غفلة أهله، وجمود فقهائه، وزيغ ساسته. إن هذا كله لا قيمة له، ولايصرفنا عن كتاب ربنا وسنة نبينا[1].

(١) انظر: كتاب الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، ص ١٥٦ ــ ١٦٠.

٨ ـ تنقية الثقافة الإسلامية والتراث الإسلامي

كان من جوانب الإصلاح التي عنى بها الشيخ الغزالي: ما يتعلق بثقافتنا التقليدية، وتراثنا العلمي الموروث. وقد درسه دراسة الفاحص الناقد، لا دراسة المقلد المتلقي.

ومن ثم وجه نقده ـ الذي لا يخلو من حدة ـ إلى تلك الفترة، وذلك التراث، وبين مواضع الخلل، ونقاط الضعف، وذلك في أكثر من كتاب له. ثم أفرد لذلك كتاباً مستقلاً نشره المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن، وهو كتابه: (تراثنا بين الشرع والعقل).

ينبه الشيخ الغزالي إلى أن الطريقة التي يواجه بها المسلمون الحياة تحتوي على أغلاط كثيرة.

ومردّ ذلك إما إلى جهلهم بأمور كان يجب أن يحيطوا بها علماً، وإما إلى علمهم بأمور على غير وجهها الصحيح.

وفي رأيه أن الثقافة التقليدية ـ وهي التي تصنع عقيدة الأمة ومزاجها وشخصيتها ووجهتها ـ مسؤولة عن ذلك القصور السائد.

لأنها تنقص عناصر لا بدّ منها لتكوين الغذاء العقلي المطلوب للجماهير.

ولأنها ـ خلال القرون الطوال ـ تضمنت جملة من التصورات والأحكام المعيبة.

ولأن ما بها من حقائق ما زال يعرض العرض المنفر أو يفسر التفسير الناقص.

وذلكم هو السر الأول في تخلف العالم الإسلامي خلال الأعصار الأخيرة تخلفاً جعل الأوروبيين ـ منذ عصر الإحياء ـ ينفردون تقريباً بقيادة القارات الخمس.

ومن السخف أن نجعل التصوف المنديل الذي نمسح به أوضارنا، فإن فساد التصوف جزء من الفساد الذي لحق جملة العلوم الدينية، وفي مقدمتها الفقه، والكلام والتفسير، والحديث.

وانحطاط التعليم الديني في هذه المجالات هو المسؤول عن تكوين أجيال ضيقة الأفق بيّنة القصور، لا تتقدم بها دنيا، ولا ينتصر بها دين.

لقد كان من إعزاز الله لرسالته الخاتمة أن خلد كتابها وعصمه، كما استبقى محمداً الأسوة الفريدة للكمال الإنساني، فجعل سنّته مصدراً ثانياً للدين بعد قرآنه الكريم.

وعن طريق الكتاب والسنة يمكن تجديد التراث الديني كله، وخلق ثقافة إسلامية سليمة كاملة لا عوج فيها ولا شطط.

ولست أعيب أسلافنا أو أنتقص جهادهم، فمن هؤلاء الأسلاف تلقينا فنوناً من المعرفة المشرفة والتربية الصالحة.

وإنما نلفت الأنظار إلى أن القرون الأولى للإسلام مليئة بالخير والذكاء والنشاط، وأن شكوانا تنصبُّ في جملتها على عصور الجمود والكسل العقلي، والسماح للبدع والخرافات بالتعشيش في أرجاء المجتمع وكأنها دين قويم وصراط مستقيم[1]!

---

(١) انظر: ركائز الأيمان، ص ١٨٣، ١٨٤.

ملاحظات مهمة على ثقافتنا

يرى الشيخ أن ثقافتنا في طورها القائم تحمل أخلاطاً لا حصر لها من أفكار ومذاهب تفتقر إلى التمحيص، وتفرض علينا أن نميز الخبيث من الطيب.

وهناك ملاحظات صادقة على هذه الثقافة يوصي الشيخ بوجوب وعيها؛ لأنها وراء المد والجزر الذي تعرَّض له تاريخنا الطويل وهو يوجز هذه الملاحظات فيما يلي:

التقعر فيما وراء المادة

(أ) التقعر في دراسة ما وراء المادة مرض أصاب المسلمين ولوى مسيرتهم العلمية ليّا شائنا. والمعروف أن الآيات المحكمة هي أم الكتاب ومناط التكاليف الاعتقادية والعلمية وأنه بَحَسْبِ المسلمين في عالم الخلق والسلوك، وعالم العقيدة والعبادة، وعالم القضاء والتشريع، أن يعتمدوا على هذه الآيات المحكمة وحدها. . أما ما تشابه في الحديث عن ذات الله وصفاته فلا مجال للعقل في بحثه. . .

إن العقل البشري أعجز من أن يفقه حقيقة الروح بين جنبيه، بل أعجز من أن يفقه تحول الأغذية في جسده إلى طاقة وخلايا.

فكيف يريد أن يعرف كنه الألوهية، واتصال الذات بالصفات؟

لكن المسلمين ــ للأسف ــ خاضوا بحاراً مُغرِقةً في هذه البحوث العقيمة كان لها أثر وخيم في تعجيز العقل الإسلامي عن البحوث المادية وإحسان الإفادة منها. وهذا الاتجاه الشارد عصيان لله الذي أمر بالنظر في الكون، وبنى على هذا النظر السديد حسن الإيمان وجميل المنفعة.

التنطع فيما يسره الله

(ب) الإسلام دين عمل يؤثر الواقع على الخيال، ويؤثر الحقيقة على الظن، ويؤثر الحركة الماضية في مرضاة الله على اللغو والشقشقة وافتراض الفروض وتشقيق الكلام، وهل نجح سلف الأمة إلا بهذا المنهج؟

بيد أننا وجدنا الدراسة الدينية تميل إلى الشروح النظرية المطولة دون سبب واضح.

والذي أحسه أن دراسة الطهارات والصلوات لا تحتاج إلى هذه التآليف المسهبة والأوقات المتطاولة، ومع ذلك فقد أصبح ذلك جزءاً من أعمار المسلمين... ومثار افتراق واسع بين الدهماء، بل بين نفر من المنتسبين إلى العلوم الدينية.

ولم يكتف البعض بهذا الطول المفتعل فأضاف إلى أعمال الحج أدعية في أشواط الطواف وأشواط السعي لا أصل لها، حتى يزيد المراسم وعورة وتهيباً...

وقد تأدت هذه المزايدات إلى إضعاف علاقة المسلمين بالحياة، وكانت مشغلة لهم عن إنتاج أهم وأجدى.

(ج) هناك فارق مؤكد بين درجة التخصص ودرجة التثقيف العام، فالتخصص يلم بمعارف شتى في فنه، ويعيبه أن يجهل ناحية ما في ميدانه.. أما أصحاب الثقافة العامة فيكفيهم ما يحتاجون إليه في بيئاتهم وأحوالهم، ولا معنى لحشو أذهانهم بما لا أثر له في معايشهم..

وقد رأيت أناساً من العوام تبلبلت أفكارهم إثر أحاديث نبوية درست لهم، وهي أحاديث صحيحة السند، ولكن ليس من الحكمة أن يعرفها العوام، فهي فوق طاقتهم الذهنية، وقد جاء في الأثر: «إنك ما حدثت قوماً بحديث لم تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[1].

ومع ذلك فإن قرويين وبدوا أو هملاً من الخلق يذكر لهم أن نبياً ضرب ملك الموت ففقأ عينه، وأن آدم حاج موسى في القدر فغلبه، وأن موسى راجع نبينا في الصلوات الخمسين حتى جعلها خمساً، وأن الجبار ليلة الإسراء هو الذي دنا فتدلى.. إلخ.

---

(١) هو من كلام ابن مسعود رضي الله عنه.

لماذا تشغل أذهان الجماهير بهذه الأمور؟ ولماذا لا يختار لهم من السنن ما يصحح وجهتهم في الحياة؟ لقد توارث العوام أن سماع هذا الكلام عبادة، وأورثهم ذلك شيئاً من الخدر والاسترخاء غير قليل..

توجيه الضعاف للتعليم الديني

(د) أَلِفَ المسلمون أن يُحفّظ القرآن للأطفال، وألفوا أن يوجه للتعليم الديني الضعاف والفقراء وذوو العاهات.. وفي بعض الأقطار الإسلامية يكاد العلم الديني يكون نصيب المطرودين من ميادين التعليم التي يشترط فيها التفوق والتبريز أو حسن المظهر وقوة العصبية..

وهذا المسلك يزري بمعنى التدين، ويضعف أهل الدين عن اقتياد الحياة بقوة، وقد يعجزهم عن مقاومة الجبارين والخطائين..

وعلى ضوء التجارب الكثيرة ينبغي وضع سياسة أخرى للتعليم الديني..

ولنذكر أن الفجوة عمقت بين العلم والحكم في تاريخنا، وأن عدداً من الأئمة والأشياخ أدى واجبه شامخاً راسخاً.

ولكن عدداً آخر ــ ربما كان أكبر ــ آثر الانزواء، وارتضى في تغيير المنكر أضعف مراتب الإيمان.

وهناك فريق آخر ربما كان أكبر وأكبر، مشى وراء الساسة مداهناً فأكل من حلوائهم وسكت عن أهوائهم!

وإذا فسد العلماء والحكام أخذت الأمم طريقها إلى القاع!

موقف المسلمين من الدنيا

(هـ) الذي أبدع هذا العالم الكبير يعرف أنه أبدع شيئاً يبهر ويعجب، وعندما يلفت النظر إلى أسرار جماله، ووساقة بنائه، فهو يرجعنا إلى الشعور بعظمته، ويثير في أنفسنا الخضوع والإعزاز لقدرته وحكمته..!!

ولقد كان جديراً بالمسلمين أن يفكروا في الكون، وينتهزوا فرصة حياتهم على الأرض ليعرفوا عظمة رب العالمين، بدراسة خواص المادة والقوانين السارية بين شتى العناصر..

إن الله لا يعرف بدراسة ذاته فهذا مستحيل، وإنما يعرف بدراسة ملكوته الضخم، واستجلاء الآيات الدالة عليه هنا وهناك، لا بأسلوب شعري هائم، ولكن بأسلوب علمي صارم..

وذلك هو منهج القرآن الكريم. وقد ولدت الملاحظة والتجربة في البيئة الإسلامية، وكان يمكن أن تترعرع وتؤتي ثمارها إلى آخر مدى لولا الانحراف الذي أصاب العقل الإسلامي بالتقعر فيما وراء المادة، ولولا انطلاق بعض المخربين يصرفون الناس عن الدنيا، ويضعون على حواسهم حجباً، فلا يدركون من قوتها ولا من جمالها شيئاً..

ويستحيل مع الجهل بالحياة وقوانينها أن يقوى الإيمان ويستوي على الطريق.

إن العلم بالحياة الدنيا وارتفاقها والاستمكان منها معان إنسانية عامة فطر الناس عليها، ولا يعد التنبيه إليها مثار دهشة، بل الدهشة أن يتقلب الناس في جنبات الأرض دون قدرة على إثارتها..

وكما ينتفع الناس بالحياة الدنيا لذواتهم ينتفعون بها في دعم أفكارهم تأييد مبادئهم وقيمهم، فالكف العزلاء تخذل الحق، والسلاح التافه يجر الهزيمة[1]..!!

ضعف التعليم الأصلي

(و) إن التعليم الأصلي في صدر الإسلام ــ ولم يكن ثم غيره ــ لبى حاجات الأمة التربوية والتشريعية والأدبية، وقدر قدرة تامة على تكوين أجيال

(١) انظر: الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، ص ٧١ ــ ٧٥.

ناضجة، وجعل المسلمين ــ عالمياً ــ أمة تعطي أكثر مما تأخذ، بل جعلها تدفع ولا تندفع، وتغزو ولا تغزى. نعم كان المسلمون بازدهارهم العلمي الأمة الأولى في العالم..!

ثم حدثت بعد ذلك أمور ليس هنا مكان متابعتها، فلنقفز قفزة واسعة لنرى هذا التعليم من نصف قرن فقط.

قصور في دراسة التاريخ

(ز) وسأجعل نفسي ومراحل دراستي منطلق التعليق الذي لا بد منه! في الصف الثاني من المرحلة الإبتدائية درسنا تاريخ الدولة العثمانية حسناً، إن دراسة أي شعب إسلامي أمر واجب، فالمسلمون أمة واحدة غير أني أتممت دراستي الأزهرية التي استغرقت خمسة عشر عاماً، دون أن أدرس حرفاً عن المسلمين جنوب شرق آسيا وجنوب آسيا نفسها، وشمال إفريقيا وغربها في العصر الحديث!

لم نعرف حرفاً عن الاستعمار الهولندي لجزر أندونيسيا ولا الأسباني لجزر سولو ومندناو وسائر الجزر التي سميت بعد «الفلبين». لم نعرف كيف استعمر الفرنسيون الهند الصينية، ولا ما حدث للمسلمين في فطانى والملايو وسنغافورة.. إلخ.

وما يقال عن هؤلاء يقال مثله عن جهلنا المطبق بمسلمي التركستان الصينية والروسية وبقية الشعوب الإسلامية التي ابتلعها التنين الروسي.

أما القارة السوداء، والإسلام هو الدين الأول في أقطارها فالوضع أدهى وأمر، وقد أنشئت فيها الآن خمسون دولة وزع المسلمون عليها بخطة بالغة الخبث كي يذوبوا على عجل أو على مكث! المهم أن يذوبوا على مر الأيام.

لقد تبين لي أن دراستنا للتاريخ الإسلامي ضحلة، وأن دراستنا للتاريخ الإسلامي فوق الصفر بقليل.

كيف هذا؟ إن رسالة محمد ﷺ للقارات كلها، فكيف نجهل هذه القارات ولا نعرف ما يعمرها من أجناس ومذاهب وفلسفات؟ ولماذا نلوك بألسنتنا أن رسالتنا عالمية، دون أي سعي للإتصال بهذا العالم الرحب؟ ولماذا انتظرنا حتى اكتشف غيرنا الأمريكتين واستراليا ووضع عليها طابعه المادي والأدبي، ثم جاء يطرق أبوابنا وهو يجرر أذياله خيلاء واستعلاء ليعلمنا ما لم نكن نعلم؟

إن القرآن الكريم يجعل السياحة من خلال الفضل، ويجعل دراسة التاريخ كله من مكونات العقل!

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [السجدة: ٢٦].

الحق أن المشرفين على التعليم الأصلي من أمد طويل فرطوا في حقوق الأخوة الإسلامية حين فرطوا في دراسة الأجناس التي اعتنقت الإسلام، وعموا عن قضاياها المصيرية، ونسوها على هذا النحو الشائن.

وأساؤوا إلى عالمية الرسالة المحمدية حين انطووا على أنفسهم وانشغلوا بمشكلاتهم، تافهة كانت أو جليلة، فكان عقابهم هذا البلاء الذي نزل بهم من كلاب الأرض وذئابها.

وقفت ــ وأنا أزور البحرين ــ أمام بقايا قلعة برتغالية لا تزال جاثمة على أرضنا، وغصت في أعماقي أنبش معلوماتي التاريخية، متى وصل القراصنة هنا؟ ولم أستطع الإجابة! وسكت وأنا محزون.

قصور في معرفة الفقه والتشريع

(ح) ولأترك تقصيرنا في دراسة التاريخ الإسلامي، وتقصيرنا في الإلمام بمعالم تاريخ الإنسانية قديماً وحديثاً، ولأنتقل إلى موضوع آخر.

إن التشريع الإسلامي أنفس مواريثنا الحضارية.

والقانون الروماني إذا قيس بفقهنا الرحب كان كالكوم التافه إلى جوار جبل أشم.

وعلم أصول الفقه هو ــ كما قال الشيخ مصطفى عبد الرزاق ــ آية العبقرية العربية، وهو أدل على فكرنا وأصالة بحثنا من الفلسفة الإسلامية لأنه نتاج إسلامي خالص رائع.

غير أن علم الأصول في دراساتنا الأخيرة أمسى علماً أثرياً هامداً يحفل بالأقوال والمناقشات الحرفية، ولا صلة له بتشريع خاص أو عام، وقد جدد الشاطبي منهجه في الموافقات، كما أن لبعض المذاهب الفقهية قواعد أصولية جديرة بالحفاوة! ولكن ذلك كله مهجور في دراستنا.

والمادة العلمية لا تعدو التلخيص أو التمطيط، والاطلاع النظري على مخلفات الماضين.

أما الفقه الإسلامي الذي استبحر قديماً وحكم العلاقات الدولية كما حكم الروابط العائلية، فهو يحيا الآن على هامش المجتمع الإسلامي، ريثما يتم رميه بعد حين في سلال المهملات.

فقه لا يستفتى في الشؤون العمالية أو الدستورية أو الدولية، وقد يسمع قوله أحياناً في بعض الشؤون، أو لا يسمع.

ورجال التعليم الأصلي مسؤولون عن هذا المصير الكابي، فنحن ندرس الفقه على نحو عقيم أو قليل الجدوى، وأذكر أني في الحادية عشرة من عمري بدأت أدرس فقه العبادات على المذهب الحنفي وكان زملائي الآخرون يدرسونه على مذاهب أخرى.

وفي ظني أن الفقه المذهبي نوع من التخصص العلمي، التخصص المبكر الذي لا معنى له.

وددت لو تعلمنا العبادات من خلاصات سهلة من الكتاب والسنة، ثم بعد فترة نتوزع على الفقه المذهبي، ولا بأس أن يدرس الطالب أكثر من مذهب فقهي إذا كان سيتجه إلى هذا الميدان. ويجب أن تدرس المذاهب على أنها وجهات نظر متساوية القيمة وأن تناقش الأدلة وتوزن الإتجاهات بحياد علمي وصدر مفتوح، لا مكان فيه للخصومة والجفاء وتفريق الأمة.

وأرى أن يوضع حد للتقطع القائم بين آراء الفقهاء الكبار، وأن يدرس الأزهر ابن تيمية، وابن حزم وغيرهما إلى جانب الأئمة الأربعة. إننا نواجه طوفاناً من الأفكار والموازين الشائعة للحقوق والمصالح ولا مساغ لمقابلة هذا الطوفان بفكر إسلامي واحد، بل يجب أن يقابل بجميع المدارس الفقهية عندنا.

ثم إن الخلود لكتاب الله وسنة رسوله لا لاجتهاد بشر، ويعني هذا ألا نتحرج من وزن الاجتهادات القديمة وأن ننفض يدنا من بعضها إذا لا بد ألا مجال لبقائه.

ألا ترى ابن تيمية عدَّ الطلاق الثلاث واحداً، لما رأى أن اجتهاد عمر في إمضائه ثلاثاً أدى إلى نتائج سيئة؟ لقد عاد به إلى الأصل على عهد النبي ﷺ وعهد أبي بكر..

وهناك اجتهادات كثيرة ينبغي أن يتوفر الراسخون في العلم على وزنها، وإعادة تقويمها، حتى لا يجيء امرؤ يخدم الاستبداد السياسي بدعوى أن الشورى لا تلزم حاكماً.. مثلاً! والقضايا الاجتهادية كثيرة، وقد نستبدل اجتهاداً باجتهاد، أو نأتي بجديد تحتاج إليه الأمة وتقره النصوص والقواعد.

وأحسب أن فقه العبادات سوف يبقى على حاله، أما الفقه الإداري والدستوري والدولي فإن تياراته الراكدة يجب أن تتحرك، وأرى لفيفاً من المسؤولين عن التعليم الأصلي كانوا ــ باسترخائهم وتقاعسهم ــ سبباً في انهزام الشريعة وهجوم قوانين دخيلة على دار الإسلام، أي أننا أزرينا بأفضل مواريثنا، ومكنا لتشريعات وضعية معيبة أن تتسلل وتحتل أرجاء المجتمع، مع الغنى التام عنها.

قصر الباع في العلوم الكونية والإنسانية

(ط) ومن ذلك: القصور في علوم الكون والإنسانية. يقول الشيخ:

«وأعود إلى ذكريات تعليمنا الثانوي، كانت الشهادة قسمين أولاً وثانياً، وكان مفروضاً في القسم الأول أن ننال من علوم الكون والحياة والرياضة ما يناله زملاؤنا من طلاب التعليم المدني، لا نقل عنهم إلا معرفة اللغات.

ثم شكا بعض قصار الباع من هذا الوضع، فإذا لجنة تتكون لتحذف كثيراً من علوم الأحياء والرياضة والطبيعة والكيمياء بحجة ضعف الطلاب في العلوم الأصلية! والحجة مفتعلة! وقد نشأ عن هذا الحذف تخرج علماء لا يدرون من العلوم المهمة إلا فتاتاً خفيف الوزن.

وأحب أن أنبه إلى أن قصور في العلوم المدنية لا يزيد دارسي الدين إلا خبالاً. إن الإسلام دين لا ترسخ قواعده ولا تنضج معارفه إلا في جو علمي واسع الآفاق، ولا أدري كيف يفهم عظمة القرآن الكريم رجل لم يدرس علوم الأرض والسماء وما بينهما..

إنني شعرت بخجل حين استبعد عالم ديني الوصول إلى القمر، وقال في التعليق على ما أذيع: إنه خبر آحاد! وشعرت بخجل أشد عندم ألَّف بعض المنسوبين إلى العلم الديني ــ بل البارزين فيه ــ كتاباً ينكر فيه دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس وساق آيات من الكتاب لم يفهمها ليدعم رأيه.

إن عقيدة التوحيد تضار حين يعرضها أولئك القاصرون! وهم معذورون؛ لأنهم لم يعرفوا من العلوم الكونية شيئاً، وجل ما يحفظون مرويات تتضمن الغث والسمين، وتعرقل سير الدعوة، بل تلقى ظلمات على الفكر الديني كله.

والواقع أن تكوين العقل الديني لا يتم إذا كان في عزلة عن الاستبحار العلمي الحديث، وأهل الذكر لا تستقيم لهم فتوى إذا كانت معرفتهم بالحياة لا تعدو الأبجديات القديمة.

وأرى ضرورة تنظيم محاضرات فلكية وطبية وجغرافية وجيولوجية وفيزيائية وكيميائية. . إلخ على المشتغلين بالعلم الديني حتى بعد تخرجهم، فإن التخلف في هذا المضمار مصيبة.

ونلاحظ أن هناك وحشة بإزاء عدد من العلوم الإنسانية مثل علم النفس والتربية والأخلاق والاجتماع. . إلخ.

والواجب أن تدرس هذه العلوم، وأن توضع في إطار إسلامي صلب.

غربلة التراث الصوفي

وعندي أننا لو غربلنا التراث الصوفي، وقدرنا جهود ابن القيم وابن الجوزي والغزالي وابن عطاء السكندري وغيرهم، لأمكننا أن نخرج بحصيلة رفيعة القدر في مجال الخلق والتربية والسلوك، ولأمكننا أن نصوغ نصف العلوم الإنسانية في قالب إسلامي جميل ونافع.

لقد رفض كثير من الموجهين اعتبار التصوف علماً، وتركوه للجماهير تتبع فيه آثار شيوخ لا يحسنون التربية والقيادة، بيد أن هؤلاء القاصرين كانوا أقدر على اقتياد العامة من فقهاء جافين مكروهين فقدوا صفاء النفس وسماحتها وطيبتها.

فإلى متى يبقى هذا الموقف الرافض؟ وماذا كسبنا منه؟

كسبنا أن الدين عند العوام وأشباههم جملة من الأحكام الجزئية، والمعارف المبتورة، من ورائها طباع لم تهذب، وأهواء قد تعلن عن نفسها بمكر في صور الطاعات وقشور العبادات، أما الضمير فميت!

إن الدين يفقد جوهره حين تَهي علاقته بالقلب، وعلم القلوب أو علم السلوك وجد في التصوف الإسلامي خواطره ومراحله، والمهم هو ضبطها بتعاليم الشريعة، ومنع العواطف السائلة الرجراجة من الانطلاق دون حدود.

وإنه لما يعين على إدراك هذا الهدف الاستعانة بالعلوم الإنسانية، خصوصاً بعدما هجرت منهجها الفلسفي وخطب لها مجرى علمياً يحترم الحقيقة ويلتزم بها»[1].

سقوط الخلافة أهون من سقوط الثقافة

إن بقاء الثقافة الإسلامية حية نابضة نقية، قادر على أن يعيد الحياة والعافية إلى الجسم الهامد العليل.

لقد مرت بالمسلمين قرون أربعة عشرة، فيها قرون حية، وأخرى هامدة، فيها أيام مزهرة بالعلم، وأخرى مظلمة بالجهل.

وامتددنا حتى أدبنا الجبابرة، وانكمشنا حتى استنسر بأرضنا البغاث. ليكن، فتلك طبيعة الحياة الدنيا..

والدرس الذي لا يجوز أن يغيب عنا: أننا ما فقدنا الصدارة قط ونحن أوفياء لربنا ونبينا، ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعام: ١٣١].

ومن قدرنا نحن مسلمي القرن الرابع عشر أن تسقط الخلافة الإسلامية في أوائل هذا القرن، وما هذه أول مرة تسقط فيها الخلافة، لقد ديست في بغداد على أيدي الهمج في القرن السابع.. وسقوط الخلافة الإسلامية حدث شنيع، ولكنه مهما قبح دون سقوط الثقافة الإسلامية..!!

لقد بقي العِلم الإسلامي يضع في العقول النور، ويضع في القلوب اليقين.

وكافح العلماء حتى صنعوا أجيالاً أشرف وأزكى، وعادت الخلافة مرة أخرى ترفع علم التوحيد في المشارق والمغارب..

---

(١) انظر: علل وأدوية ص ١٨١ ــ ١٨٨.

وخصوم الإسلام في هذا العصر مستميتون أن يسقطوا معاقل الثقافة الإسلامية، وأن يردموا منابعها أو يلوثوها ما استطاعوا، وذلك حتى لا تعود للإسلام وحدته الكبرى ودولته الجامعة، ومن ثم فإن الجهاد العلمي الآن فريضة محكمة. إن الثقافة الحارسة لتراثنا كفاح أدبي هائل النتائج، بل إنه الكفاح الذي يوزن فيه مداد العلماء بدماء الشهداء. .

أذكر أن الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين ــ طيَّب الله ثراه ــ قال لي: عندما أسقط الحلفاء الخلافة أعقاب الحرب العالمية الأولى، قررت جميع القوى التي شاركت في ذلك أن تنتقل إلى القاهرة كي تضرب ضربتها الأخيرة بوصف القاهرة هي العاصمة الثقافية للعالم الإسلامي.

لكن موطن الأزهر قاومت ولا تزال، ونرجو أن تظل راية الثقافة الإسلامية مرتفعة في مصر، وشتى عواصم الإسلام.

وإني إذ أقرر هذه المقاومة لا أريد الترويج لخدعة كبيرة يفهم منها أن التعليم الديني بخير، وأن الثقافة الإسلامية في أمان.

العكس هو الصحيح، والمسلمون يعانون أزمة ضروساً في الدعاة والمربين، والفقهاء والمفتين، والميدان الإسلامي من عشرين سنة ينتقص كما وكيفا، وهنا مكمن الخطر!

لقد قلت: إن الهزائم العسكرية عرض يزول، أما الهزائم الثقافية فجرح ميت، والثقافة الصحيحة هي التي تبني الإنسان المسلم والمجتمع المسلم على قواعدهما الركينة من كتاب الله وسنة رسوله، وعبقرية البناء الصحيح المتين هي التي استبقت صرح الإسلام إلى يوم الناس هذا. . .

إنه أمام التمزيق المتعمد للرقعة الإسلامية الكبرى لا بد من ثقافة تؤكد وحدتنا العاطفية والفكرية. وأمام المغالاة بالقشور والرسوم، والمخاتلة بالصور الشائهة، نريد ثقافة تنشىء العقل المسلم، والضمير المسلم، والسلوك المسلم. .

وأمام العجز الشائن في شؤون الدنيا نريد ثقافة تجعل عبادة الله سواء في المسجد والمصنع.

لقد ضاقت نفسي بلفيف من الناس يدعون الإسلام ولا جهد لهم إلا استفزاز الأقوياء وتلقي الضربات! أما العمل الصامت الذكي لخدمة الإسلام وأمته فقلما يحسنون.

وما كان ذلك دأب سلفنا الذين امتلؤوا أمانات وكفايات من أخمص القدم إلى ذؤابة الرأس، اقتحمتهم العيون أول ما خرجوا من الصحراء، فلما اشتبكوا مع أبناء الحضارات المدبرة في فارس والروم جثا التاريخ بين أيديهم يسجل ويروي.

ومهما تكن الهزائم التي أصابتنا خلال هذا القرن، فإن يوم الإسلام قادم لا ريب فيه.

سنظل نقاتل الإلحاد الشيوعي، والعدوان اليهودي، والاستعمار الصليبي، تحت علم التوحيد، وسيكون القتال قاسياً كثير الشهداء.

وفي ذروة هذه المعركة سينزل عيسى ابن مريم ليكذب بنفسه الذين جعلوه إلٰهاً مع الله، ولن يقبل هدنة إلا إذا اندحر الباطل وسويت قلاعه بالرغام![1].

---

(١) انظر: الدعوة الإسلامية، ص ٢٢٠ ــ ٢٢٢.

٩ ـ ترشيد الصحوة

عنى الشيخ الإمام بالصحوة الإسلامية، ويعتبر واحداً من أبرز آبائها، إن لم يكن أبرزهم، عنى ببعثها، كما عنى بترشيدها، حتى لا تهدم من الداخل، أو تضرب من الخارج، وكتبه الأخيرة تكاد تدور حول هذا المحور، من هذه الكتب:

ـ دستور الوحدة الثقافية للمسلمين.
ـ مشكلات في طريق الحياة الإسلامية.
ـ هموم داعية.
ـ علل وأدوية.
ـ جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج.
ـ الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر.
ـ الغزو الثقافي يمتد في فراغنا.
ـ مستقبل الإسلام خارج أرضه.
ـ الطريق من هنا.
ـ الحق المر.
ـ السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث.

وهذه الكتب امتداد لكتبه القديمة الناقدة للتدين المعلول، مثل: تأملات في الدين والحياة.. وليس من الإسلام.. وركائز الإيمان بين العقل والقلب.

وهو يريد للأمة أن تلتف حول هذه الصحوة لا أن تتفرج عليها، فهي منا ولنا.

معالم لترشيد الصحوة

يقول في أحد كتبه ــ راسماً بعض المعالم الرئيسية للصحوة المرجوة ــ :

«إن العالم الإسلامي لا يبيع دينه، ويؤثر أن يهلك دونه، ولا يغض من موقفه نفر شذاذ من الخونة والجبناء، فقدوا الدين والشرف، ونشدوا العيش على أي حاجة، وبأي ثمن!.

ولكي نحسن الوقوف أمام عدو الله وعدونا يجب أن تتوفر لجبهتنا العناصر الآتية:

أولاً: يعود الولاءُ للإسلام ويستعلن الانتماءُ إليه، وفي حرب تعلن علينا باسم الدين لا مجال لإطفائها بالتنكر لديننا!

لماذا يتقرر إبعاده عن المعركة؟ ولحساب من؟ إن رفض الإسلام في هذه الساعة هو الانتحار، وطريق الدمار، بل هو قرة عين الاستعمار..

ثانياً: الولاء الشكلي للإسلام مخادعة محقورة، ومن المستحيل أن نرتبط روحياً ومنهجياً بالماركسية أو بالصليبية وفي الوقت نفسه ندعي الإسلام..

يجب أن تعود الروح لعقائدنا وشعائرنا وشرائعنا، والمسلم الذي يستحي من الصلاة بينما يستعلن اليهودي بصلاته في أرقى العواصم لا يمكن عده مسلماً! ولن ننال ذرة من عناية الله إذا اتخذنا الدين لهواً ولعباً..

ثالثاً: يقصى من ميدان التدين العلماءُ الذين يحرقون البخور بين أيدي الساسة المنحرفين، ويزينون لهم مجونهم ونكوصهم..

والعلماء الذين يشغلون الناس بقضايا نظرية عفى عليها الزمن، أو خلافات فرعية لا يجوز أن تصدع الشمل أو تمزِّق الأهل.

والعلماء الذين يظلمون الإسلام بسوء الفهم، ويرونه في سياسة الحكم والمال ظهيراً للاستبداد والاستغلال وإضاعة الشعوب.

إن المسلمين في المشارق والمغارب مهيؤون ليقظة عامة تحمي كيانهم وتستبقي إسلامهم. وهم كارهون أشد الكره لأن تكون الأحوال المعاصرة صورة طبق الأصل لما كان عليه المسلمون قبل الهجوم الصليبي في العصور الوسطى.

أطلب من عباد الله الصالحين أن يصيخوا السمع للنذير العريان، قبل أن يأخذنا الطوفان، فإن الأقدار تقتص من المستضعفين المفرّطين، كما تقتص من المجرمين المعتدين.

وينبغي أن نزيد الأمر وضوحاً فيما يفعل اليهود، وفيما يراد منا فعله، فإن مسافة الخلاف واسعة بين الموقفين، لقد تأملت في الأحداث المثيرة التي وقعت، فوجدت أن الذي أضرم النار في المسجد الأقصى من بضع سنين يهودي استرالي، وأن الذي أطلق الرصاص على المصلين فقتل وجرح عشرات، وصوب طلقاته على قبة الصخرة فكاد يهدها يهودي أمريكي!

إن الأخوة الدينية جمعت بين الأستراليين والأمريكيين لدعم «إسرائيل»، وكذلك جمعت هذه الأخوة بين شرق أوروبا وغربها، وبين اليهود العرب في إفريقية وآسيا! وعد أولئك كلهم أولاد الأنبياء، ونسل يعقوب المبارك(!).

والعالم المتحضر لا يرى في هذا الرباط شيئاً ينكر... الشيء الذي ينكر حقاً هو الإخاء الديني بين المسلمين وحدهم، وتحول هذا الإخاء إلى سياج يحمي عرب فلسطين من الهاجمين عليهم!!

ومن ثم كانت قضية فلسطين عنصرية لا دينية، كما يصورها لنا الخادعون المخدوعون!

والوجود اليهودي في فلسطين المحتلة لا يجوز أن يستغربه العرب، لماذا لا يكون إحساسهم به على أنه واقع طبيعي لا بد منه؟ ونتساءل: هل الوجود العربي إلى جوار اليهود له أي احترام في توراة اليهود وتلمودهم؟ إن إسرائيل من الفرات إلى النيل، ومن دمشق إلى المدينة! وبلوغ المرام يتم خطوة بعد خطوة عند قوم يستغلون الزمن، ويحسنون التريث، ويعرفون متى يضربون!

إن المأساة المقلقة وقوع الغارة اليهودية، ومن قبلها الغارة الصليبية في أيام نحسات من تاريخنا المديد! فالعلم بالدين سيء والعمل به أسوأ، وقد استطاع الاستعمار الثقافي خلق جيل مهزوز الإيمان والفقه، ضعيف الثقة بنفسه وأمته، فهو يعطي الدنية في دينه ودنياه، غير شاعر بأولاه وعقباه.

إننا بحاجة إلى يقظة عامة تتناول أوضاعنا كلها، حتى نحسن الدفاع عن وجودنا ورسالتنا في عالم لا تسمع فيه إلا عواءُ الأقوياء»[1].

الدفاع عن الرموز والأعلام

ومن ميادين إصلاح الصحوة وترشيدها لدى الشيخ الغزالي: العمل على تجميع الجبهة الإسلامية، وتقريب بعضها من بعض، وضم جهودها للتشييد لا للتقويض، والوقوف في وجه الكيد الصهيوني والمكر الصليبي، والتهجم العلماني.

إنه يأسف أشد الأسف حين يرى الجبهة الإسلامية يناوش بعضها بعضاً، أو يكيد بعضها بعضاً، أو تحاول فئة منها هدم غيرها لبناء نفسها على أنقاض الآخرين.

وهو يأسى كل الأسى إذا وجد بعض الصغار يتطاولون على الكبار، ويحرصون على هدم القمم، وتشويه الرموز في تاريخ الأمة وتراثها الفكري.

دفاع عن الإمام الغزالي

ولكم تملكه الغضب والحزن حين بلغه أن رجلاً قام يلقي محاضرة في إحدى الجمعيات عنوانها (أبو حامد الغزالي الكافر)!

---

(١) هموم داعية: ص ١٠٨ ــ ١١٢.

يقول الشيخ: «فزعت لشناعة التهمة الموجهة إلى إمام ضخم من قادة الفكر الإسلامي، لقد كان أبو حامد عالماً أديباً، وفقيهاً أصولياً، ومربياً فيلسوفاً»[1].

وهو أذكى من أرسطو وأفلاطون وسقراط، الذين تشمخ بهم اليونان، وتعتز بهم أوروبا، لماذا يقوم امرؤ بتكفيره؟

وإذا كانت للرجل أخطاء في الأحاديث النبوية، فقد استدركت عليه من أصحاب هذا الفن، ليتيسر ــ بعد ذلك ــ الانتفاع بعلمه الغزير.

ويوم طغت الفلسفة اليونانية على العقل الإسلامي اجتاحها أبو حامد بكتابه: (تهافت الفلاسفة) ليعيد إلى الأصول الإسلامية مكانتها. ويوم استهلك الترف أمتنا، حكومات وشعوباً، وأذهلها عن رسالتها الكبرى عمل على (إحياء علوم الدين).

هذه العلوم كانت تحتضر، وكان المسلمون قد فقدوا جدارتهم بالحياة، فعندما هجم الصليبيون على الشام، واستباحوا بيت المقدس لم يكن في مواجهتهم أحد.

إن هؤلاء الصليبيين الزاحفين لو قاومهم جيش من الكلاب لهزمهم، فقد كانوا يجرون أقدامهم جراً من الإعياء والمجاعة، ولكنهم لم يجدوا أمامهم أحداً! أين كنا؟.

وجهد الغزالي في الإحياء مشوب، وقد وقع في أخطاء شتى بيد أن الكتاب من أخصب المؤلفات في شرح آفات الرجل بعد ذلك أن يتهم بالكفر؟.

إن المسارعة في التكفير دأب الرعاع والحمقى! وهناك علماء مبرزون في ميدان ومقصرون في ميدان آخر يعطون أنفسهم حق إصدار أحكام علمية وتاريخية في كلا الميدانين، وهم يعينون الجهلة على تكوين أفكار منحرفة ضد رجال أبرياء.

---

(١) انظر في ذلك: كتابنا: الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه، طبعة دار الوفاء بمصر.

ولو اتجهنا إلى البناء بدل الهدم، وإلى الإنصاف بدل الحيف لكنا أهدى سبيلا[1].

إن الشيخ يؤلمه ويحزنه ما يراه من تفرق العاملين للإسلام، وتشتت الجبهة الإسلامية، في حين أن خصومهم المهاجمين لرسالتهم من دعاة اليمين واليسار، متفاهمون على الغاية المنشودة، متعاونون في الطريق الطويل، يقيم بعضهم بعضاً إذا كبا، ويغطيه إذا تعرى، ومع أن للكثير منهم أخطاء مذلة فقلما تجد من يتتبعها، وقد وزعوا الأدوار بينهم، ومشوا إلى هدفهم متساندين.

أما الإسلاميون فيما بينهم متقطع، وإذا تصالح ندامى الحان، وتشاكس إخوان المسجد، فستنكسر المئذنة ويستولي السكارى على المحراب.

يقول الشيخ:

«اطلعت أمس على مجلة أحبها فقرأت فيها لمزا للأديب الحر المصلح عبد الرحمٰن الكواكبي، وتفسيقاً لرجلين من بناة النهضة الإسلامية الحديثة.. وأنا أحد تلامذة «المنار» وشيخها محمد رشيد، وأستاذه الشيخ محمد عبده.

وأنا أعرف أن المتنبي ــ غفر الله له ــ كان يحب المال إلى حد البخل! ويحب الإمارة إلى حد الجنون. ومع ذلك أطرب لشعره، واستجيده وأستزيده، وإذا لم يكن أمير الشعراء العرب فهو من قممهم.

إنني لا أجعل عيباً ما يغطي مواهب العبقريين ثم لحساب من أهدم تاريخنا الأدبي والديني؟ ولمصلحة من أشتم اليوم علماء لهم في خدمة الإسلام وكبت أعدائه كفاح مقدور؟

ومن يبقى من رجالنا إذا أخذت تاريخ الشيخين أبي بكر وعمر من أفواه غلاة الشيعة، وتاريخ علي أبي طالب من أفواه الخوارج، وتاريخ أبي حنيفة من أفواه

---

(١) انظر: علل وأدوية، ص ١٠٥، ١٠٦.

الإخباريين، وتاريخ ابن تيمية من ابن بطوطة وابن فلان، وتاريخ محمد بن عبد الوهاب من أفواه الأتراك.. إلخ؟.

وددت لو أعنت على محاكاة أبي حامد الغزالي مؤلف (إلجام العوام عن علم الكلام) فألفت كتاباً عنوانه: (إلجام الرعاع والأغمار عن دقائق الفقه ومشكل الآثار) لأمنع الصغار عن مناوشة الكبار، وأشغلهم بما يصلحون له من أعمال تناسب مستوياتهم، وتنفع أممهم بهم.

وِجهة نظر في أقدار الرجال

أكره التعصب المذهبي، وأراه ضيق عقل وقلة علم، أو ضيق خلق وقلة مروءة.

وأستحب التقليد المذهبي للعامة وأشباههم، وللأخصائيين في علوم الكون والحياة وشؤون الدنيا، حتى لا تشغلهم الفضول عن الأصول! وأعني بالأصول ما توفروا عليه من مهارات فنية وحيوية، مدنية أو عسكرية لا بد منها لدعم أجهزة الجهاد ورفع كفايتها، فإن مصاب المسلمين في هذه الميادين فادح أو فاضح.

أما المشتغلون بعلوم الدين التقليدية، فلا بأس أن يوازنوا بين وجهات النظر المختلفة، ويرجحوا دليلاً على دليل ومذهباً على مذهب.

مع إكنان الاحترام للرجال الذين قادوا ثقافتنا القديمة، وليس هذا تفضلاً عليهم نتطوع به، بل هو أدب ننزل به على قول رسولنا الكريم ﷺ: «ليس منا من لم يوقر كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه»[1].

واحترامي لك لا يعني بتاتاً أن أسلم بكل ما تقول، وتخطئتي لإنسان ما لا تعني أبداً أني أفضل منه، إن حقيقة الفضل لا يعلمها إلا الله، والأئمة الراسخون قد

---

(١) الحديث رواه أحمد والحاكم والطبراني عن عبادة بن الصامت بلفظ: «ليس منا من لم يجل كبيرنا..» الحديث. قاله الهيثمي: «وسنده حسن».

تقع منهم هنات، وما يهدم ذلك مكانة حصلوها بالسهر والإخلاص والدأب والتفاني.

مع محمد عبده

وقد نبتت في عصرنا هذا نابتة سوء تغمز الأكابر بما تراه مأخذاً عليها، وتتعامى عن كل ما لهم من حسنات.

فمن من عباقرة الأرض رزق العصمة؟ ذاك لو سلمنا بأن ذكروا مآخذ.. أقول ذلك لمناسبة ما قرأت من تهجم على الشيخ محمد عبده وهو أحد رواد الإصلاح الحديث، وروح الفقه المتجدد في مدرسة المنار.

أول ما عرفت الشيخ في كتابه: (رسالة التوحيد)، وهو عرض جديد لعلم الكلام ردم الفجوة بين السلف والخلف، وشرح العقائد شرحاً يمزج بين العقل والنقل، وتجاوز الترف العقلي والجدل اللفظي ومنهج المتون والشروح، وقدم أصول الإسلام تقدمة دقيقة جيدة.

ثم قرأت كتابه عن (الإسلام والعلم) الذي رد به على وزير خارجية فرنسا، فرأيت رجلاً عليماً بالإسلام وتاريخه وفضله على الحضارة الإنسانية، عليماً في الوقت نفسه بالنصرانية والهندوكية وتاريخهما وما يكتنفه من غيوم.

وقد ألف الكتاب في ليلة واحدة لشدة غضبه من الهجوم الفرنسي، وملأه بالوثائق التي تشرف الحق وتخزي الباطل[1].

مَنْ مِنْ علماء المسلمين في عهده تحرك بهذه العاطفة ورد بهذا الرسوخ؟.

---

(١) ومن كتبه الجديرة بالتنويه: كتابه: (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) الذي رد به على النصراني اللبناني فرح أنطون، الذي ادعى أن النصرانية كانت أرحب صدراً للعلم والمدنية من الإسلام، فأسكته الشيخ بكتابه هذا الرائع، الذي يدل على غيرة الرجل، وعلى سعة علمه بالإسلام والنصرانية أيضاً.

ثم قرأت تفسيره للقرآن الكريم، ووجدت بواكير التفسير الموضوعي للسورة فيما كتب، أهتدي إليها ذهن لماح مستوعب، وبصر حديد في إدراك الخيوط التي تشد أجزاء السورة، كما تشد الأعصاب أجزاء الكائن الحي.

ويمكن عند متابعة المنار أن يعرف فضل الرجل في تجلية المعنى والحكمة، ودفع الشبهات ودعم اليقين.

قال صديق: لا تنس أن الرجل ــ من الناحية العلمية ــ متهم بتجاوز أحاديث صحاح، وهو اتهام لو صح يسيء إلى مكانته! قلت: نعم، إن الذين يرفضون السنة النبوية مصدراً للتشريع بعد القرآن الكريم أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان، وإذا كان رفضهم للمتواتر والآحاد جميعاً فهم كافرون يقيناً. بيد أن هنا خلطاً مزعجاً ينبغي كشفه، فإن جماهير أهل العلم تعترف بالسنة جملة، ويقوم لديها بعدئذٍ من الأسباب الوجيهة ما ترد به حديثاً من مرويات الآحاد.

والذين يفعلون ذلك لا يسمون مكذبين بالسنة، فإن ردهم لهذا الحديث إنما وقع لأنهم يستبعدونه من السنة المطهرة، كأنهم يقولون عنه: هو موضوع، أو فاقد لشرط من شروط القبول المقررة.

وخصوم محمد عبده يكادون يتهمونه بالزيغ؛ لأنه رفض حديث سحر الرسول ﷺ، مع أنه رفضه تعلقاً بظاهر القرآن الكريم وإعلاء لقدر المصطفى.

وأخلص من هذا التطويل إلى أن اتهام الرجل برفض السنة كلها ــ لأنه اعترض أثراً محدداً ــ جور شديد، ومدرسة المنار شديدة الاحترام للسنة، ولكن القرآن عندها الدليل المقدم، ومن يعترض هذا؟

قال الصديق: في كلامك وجهة نظر قد تقبل، ولكن ما لا يقبل تطويع القرآن لنظريات علمية أو مفاهيم حديثة، إن تفسير الشيخ للملائكة، وللطير الأبابيل لا مساغ له!

قلت: قد يكون تطرف في تقريب المعاني من أذهان المعاصرين[1]، ولست ممن يرتضون هذا المنهج، غير أني أتساءل: لماذا يحسب عليه ذلك، ولا يحسب له تفسيره القيم النقي لآيات سورة الأحزاب في زواج بنت جحش، وتفسيره الرائع لآيات سورة الحج:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الحج: ٥٢].

إن الرجل دمر خرافة الغرانيق التي وجدت لها أسانيد عند بعض المحدثين الكبار، وذاد عن السيرة الشريفة أوهاماً تعكر صفاءها، وبدا من أسلوبه في الاستدلال أنه استدرك على بعض المحدثين اهتمامهم بالسند وذهولهم عن المتن، وأنه رفض تقوية الفرع على حساب توهين الأصل.

والواقع أنه لا يرد أوهام المستشرقين، ولا يصد مفتريات المبشرين إلا فكر على هذا الغرار، فهل ذلك عيبه؟

صحيح أن الجانب السياسي في حياة الرجل موضع أخذ ورد، وأعرف أنه كان في وضع لا يحسد عليه بين محتل غاشم وقصر خائن. وليست لي دراسة مفصلة لهذا الجانب، وإنما أعلم أن دواعي التزكية والترجيح، والإهانة والتجريح، طيعة لمن أراد المدح والقدح، والمصير إلى الله الخبير بالنيات، وإنما عناني فقط الجانب العلمي الذي يعني المسلمين كلهم، وله بحاضر المسلمين ومستقبلهم علاقة وثيقة.

---

(١) ظهر الشيخ محمد عبده، والغرب في أوج حضارته وازدهاره، والمسلمون في حضيض هبوطهم، وهذا كان له تأثيره على الشيخ ومدرسته في محاولة التقريب من الفكر الغربي، وإزالة الحواجز بينه وبين الفكر الإسلامي، إلى حد التنازل والتجاوز أحياناً، فمن الإنصاف أن نضع الرجل في زمانه، لا أن نحاكمه إلى زماننا نحن، وعلى كل حال لم يقع السيد رشيد رضا فيما وقع فيه شيخه من التأويل المردود.

مع جمال الدين الأفغاني

وأذكر في سطور قلائل رأيي في جمال الدين الأفغاني، لوددت أن يكون علماء الدين على صفته في عزة النفس وشموخ الأنف والتوكل على الله. عندما ذهب إلى الآستانة طلب منه السلطان عبد الحميد أن يدع مهاجمة شاه إيران، وأنصت جمال الدين دون أن يردع، فلما طال إلحاح السلطان قال منهياً الحديث: قد عفوت عنه!

وشُده السلطان، وذعرت الحاشية! قد عفوت عنه؟ العهد بعلماء الدين أن يكونوا مدفوعين بالباب ينتظرون الجدا، ويشكرون الندى. فما بال هذا الرجل يناصي الملوك ويحاكم أخطاءهم؟!

قال المؤرخون: ما كان جمال الدين يرى نفسه دون الخليفة.

هل هذا السمو خلق عميل للماسونية كما يقال؟ إنه خلق متوكل وثيق الصلة بربه، راسخ القدم في دينه، وما سمعت قبله ولا في عصره من كشف أحقاد الصليبية العالمية، وألب الجماهير ضدها، وشن الغارات شعواء على المستبدين والظلمة، ونفخ من أنفته في الشعوب الراكدة المستعبدة يحضها على العمل لدينها ودنياها. إن الرجل وحده كان صاحب هذا الصوت ويظهر أن تلك كانت جريمته.

قالوا: كان منتسباً لأحد المحافل الماسونية، ولا أنفي هذا، وإنما أسأل: في أي كتاب إسلامي شرحت آثام الماسونية وحذر المسلمون منها قبل عصر الأفغاني؟.

إنه خدع بكلمات الإخاء والحرية والمساواة كما خدعت أمتنا اليوم في المؤسسات العالمية الكثيرة، والمهم أنه منذ ظهر إلى أن مات عليلاً أو قتيلاً لم يؤثر عنه إلا العمل على استنهاض المسلمين وإحياء جامعتهم وحضارتهم ورسالتهم.. وذاك حسبه من الشرف.

أذكر أن «بابا روما» الأسبق مات عقب مرض ألمَّ به، فألف طبيبه الخاص رسالة لا أدري ما فيها عن حياته الخاصة، فصودرت الرسالة، وفصل الطبيب من النقابة، وانتهت حياته الإجتماعية.

وقد ألفت عشرات الكتب عن «نابليون» تنوه بأمجاده، وتتواصى بالسكوت عن غدره وشذوذه وخسته.

القوم إن رأوا من عظمائهم خيراً أذاعوه وإن رأوا شراً دفنوه! أما نحن فمبدعون في تضخيم الآفات إن وجدت، واختلاقها إن لم يكن لها وجود، والنتيجة أنه لن يكون لنا تاريخ»[1].

والعجيب أن غلاة الإسلاميين اتفقوا في موقفهم من الأفغاني مع غلاة العلمانيين! على بعد ما بين الفريقين في المفاهيم والأهداف والمواقف.

فالدكتور لويس عوض ــ وهو نصراني الديانة، غربي الثقافة، علماني الوجهة ــ يصب جام غضبه على جمال الدين، ويصفه بكل موبقة، فهو عنده «مغامر مجهول، كافر مجنون، مخاطر مغمور، زنديق مخبول، ملحد مأجور، أفاك دساس، دجال متلون... إلخ».

وقد كتب الأستاذان أحمد بهجت وسامح كريم في الأهرام ٢٩/ ٨/ ١٩٨٣ تعليقات على طريقة لويس عوض في البحث والحكم، وبينا أن الرجل كان يرجع إلى تقارير المخابرات الدولية، ويستقي من مصادر لا تعرف بالنزاهة والصدق. كما بين الأستاذ الدكتور جابر قميحة أن (لويس) كان قاصر البحث، غائب المنهج.

والدكتور لويس ــ كما يقول الغزالي ــ يرى أن المعلم يعقوب ــ الذي خان مصر وانضم إلى الحملة الفرنسية ــ هو زعيم قومي عظيم القدر! وأن جمال الدين ــ موقظ الشرق الإسلامي في العصر الحديث ــ جاسوس ملحد!!

ولا عجب في موقف الدكتور، إنما العجب في موقف الذين تلاقوا معه ــ من المتديِّنين ــ في ضرب رجل الإسلام، والجنون فنون[2]!

---

(١) علل وأدوية: ص ٨٥ ــ ٩٣.

(٢) انظر: علل وأدوية، ص ١٠٤.

إن تشويه الرموز الإسلامية، وتحطيم الأعلام، وتدمير القمم: عمل لا يستفيد منه غير أعداء الإسلام، وخصوم المسلمين. وهو للأسف ما أصبح هواية لبعض المنتمين إلى الدين!

لقد زرت المملكة العربية السعودية في العام الماضي، فوجدت أمراً رابني وساءني: مجموعة من الكتب تتهم العلماء والدعاة، وتوسعهم سباً وقذفاً. صنف هذه الكتب بعض الأخوة الغلاة ممن ينسبون أنفسهم إلى السلفية والحق أن السلفية منهم براء.

لم يكن هؤلاء يدعون عالماً كبيراً، سابقاً أو لاحقاً أو معاصراً، يخالفهم في قضية ما، إلا كالوا له الذم بأوسع مكيال.

لم يسلم من طوال ألسنتهم الباقلاني ولا إمام الحرمين، ولا الإسفراييني، ولا الغزالي، ولا الرازي، ولا النووي، ولا ابن حجر العسقلاني، ولا السيوطي، ولا غيرهم من المتقدمين.

كما لم يسلم منهم من المحدثين الأفغاني ومحمد عبده، والكواكبي ورشيد رضا وفريد وجدي وغيرهم من دعاة الإصلاح.

وكذلك لم يسلم منهم من بعدهم من المفكرين والدعاة: المودودي والندوي وحسن البنا وسيد قطب والغزالي والقرضاوي ومحمد عمارة وفهمي هويدي... وغيرهم.. من الأموات والأحياء.

وهو ما جعل بعض العقلاء من علماء السعودية يرد عليهم هذا الإسراف والتطاول، داعياً إلى وجوب التثبت بين الناس بعضهم وبعض.

ونسي هؤلاء أن حسن الظن بالمسلمين أولى من سوئه، وأن الأصل حمل حال المسلمين على الصلاح، والتماس المعاذير لأهل الإسلام، وافتراض نية الخير منهم.

١٠ ـ إحياء اللغة العربية

اللغة العربية هي لغة القرآن، ولسان الإسلام، ووعاء ثقافته، وهي اللغة التي شرفها الله تعالى بأن أنزل بها أعظم كتبه، فخلد ذكرها، وعمم أثرها.

وقد ذهب الإمام الشافعي إلى أن تعلم اللغة العربية ـ أو قدر منها على الأقل ـ فرض على كل مسلم حتى يستطيع أن يؤدي فرائض دينه، وخصوصاً الصلاة اليومية.

وقد كان انتشار الإسلام في العالم سبباً في انتشار اللغة العربية، وخصوصاً في العصور الأولى، حيث كانت اللغة تسير مع الدين جنباً إلى جنب، وهذا سر تعريب مصر والسودان وشمال أفريقية كله، والأندلس يوم كان للمسلمين فيه دولة.

وقد وسعت اللغة العربية علوم الحضارة الإسلامية وفنونها في زمن ازدهارها، ولم تضق بعلم ولا فن، بالإضافة إلى علوم العربية نفسها، التي نبغ فيها عباقرة أفذاذ من شتى الأجناس، لا من العرب وحدهم، وارتقى الأدب العربي شعراً ونثراً، حتى بلغ الذروة في آداب العالم.

وفي عصور الهزيمة والتخلف وإدبار الحضارة الإسلامية، ذبلت اللغة العربية وآدابها، وطغت على شعرها ونثرها المحسنات اللفظية، وغابت الأصالة والإبداع، وأضحى التكرار والتقليد هو الطابع العام للإنتاج الأدبي، وأصبح المثل السائر هو: ما ترك الأول للآخر شيئاً!

وعندما بدأت اليقظة الإسلامية الحديثة، كان التوجه لإصلاح اللغة وإحيائها، وتحريرها من العوائق اللفظية التي تنوء بها في مقدمة بواكير التجديد والإصلاح.

نجد هذا عند كل المصلحين الإسلاميين، وخصوصاً الشيخ الإمام محمد عبده، الذي اعتبر إصلاح أساليب اللغة العربية أحد أمرين أساسين أو أمور ثلاثة كانت في طليعة ما عنى به.

وقد ساهم الشيخ في ذلك بنشر (نهج البلاغة) الذي يضم كلمات وخطب سيدنا علي رضي الله عنه، كما جمعها الشريف الرضى، وتعليق الشيخ عليها.

كما كانت كتابات الشيخ نموذجاً يحتذى في ذلك، بعيداً عن التقعر والتكليف.

وكذلك عنى الإمام الشهيد حسن البنا باللغة، حتى جعل من وصاياه العشر لأتباعه وتلاميذه التكلم باللغة العربية الفصحى.

فلا غرو بعد ذلك أن يعنى إمامنا الغزالي بالعربية، وأن يدافع عنها، وينوه برجالها وأدبائها وشعرائها الكبار، مثل المتنبي قديماً وأحمد شوقي حديثاً، ومصطفى صادق الرافعي، وغيرهم.

وهو يهاجم الذين يروجون اللهجات العامية، ويريدون تخليدها وتعميقها، كما يهاجم دعاة الشعر الحديث، الذي لا يراه شعراً ولا نثراً. حتى ذكر الشيخ في بعض كتبه: «إن الجرأة على اللغة العربية وصلت إلى حد الفحش، والسكوت على هذا الوضع طريق إلى الارتداد عن دين الله»![1].

وأثنى الشيخ على الزعيم المصري سعد زغلول لأمرين:

١ ــ جعل اللغة العربية هي لغة التعليم والتربية في جميع مدارس مصر، بدل الإنكليزية.

---

(١) انظر: علل وأدوية، ص ١٩٠.

٢ ــ وثانياً أنه كان يخطب بالفصحى، فلا يقع في خطابه السياسي لحن ولا عامية ولا إسفاف، على خلاف زعماء جاؤوا بعد ذلك يخطبون الجماهير بالعامية المبتذلة!

وفي موضع آخر يقول الشيخ: معروف أن المبشرين والمستشرقين بذلوا جهوداً حثيثة لتغليب العامية، وإماتة لغة القرآن.

فكيف ــ باسم العروبة ــ نَمْقُت لغتها ونهجر بلاغتها وأدبها، ولحساب من؟

ولاحظت أن باسم العروبة كانت تلقى الخطب الرسمية الضافية باللغة العامية الدنيا، وهو تصرف لم يؤثر عن قادة الأمم في شرق وغرب!

ولاحظت أنه باسم العروبة أصبحت العامية لغة البرامج الإذاعية حاشا نشرات الأخبار والدروس الدينية، وتقررت اللهجات العامية لغة للتخاطب والتسجيل..

كما أنه باسم العروبة فرض حظر رهيب على اللغة العربية أن تدخل كليات الطب والهندسة والصيدلة والعلوم... إلخ.

وتحجرت هذه اللغة، فلم تواكب سير الحضارة إلا بخطى السلحفاة أحياناً وفي جو من التندر والسخرية!!

المطلوب لإحياء اللغة

وفي أثناء حديث للشيخ عن الإعلام الإسلامي وتقصيرنا فيه، وما يتطلبه منا، تحدث عن دور اللغة في الإعلام وكان مما قاله هنا:

بقي عنصر أخير فرطنا فيه كثيراً وهو تعليم اللغة العربية، سواء للمسلمين الأعاجم أو لغير المسلمين! إن الجهل باللغة العربية يشيع بين ٨٠ أو ٨٥ في المائة من المسلمين. وأما الجهل بها في أرجاء العالم فشيء مفزع، ولا يمكن عدها لغة عالمية مع أنها الوعاء الفذ للرسالة العالمية الوحيدة التي طرقت أبواب العالم، وشاء القدر الأعلى أن تبقى فيه إلى يومه الأخير.

ونحن نطلب ثلاثة أشياء محددة لإحياء اللغة العربية والحفاظ على مكانتها:

١ ــ تأليف بعثات وجماعات لتعليم اللغة وحدها دون ربط هذا التعليم بالبلاغ الديني، أي تهيئة معرفة اللغة وإتقانها لأي إنسان يطلب المزيد من الثقافة. وسوف يجني الإسلام على المدى البعيد ثمرة الازدهار اللغوي المجرد.

٢ ــ الجد في محاربة اللهجات العامية ــ داخل الوطن العربي ــ وتضييق الخناق عليها، ومنع البرامج التي تقدم الأحاديث باللغات العامية، منع الأزجال والمواويل والشعر الفوضوي المبتدع أخيراً، والذي يسمونه الشعر المرسل.

٣ ــ إحياء الأدب العربي الخالص وتقريبه من طبيعة العصر، أي تجريده من التكلف وافتعال المحسنات اللفظية، وتشجيع الشعراء المجيدين بشتى الوسائل...

وقبل ذلك لا بد أن تقوم مجامع اللغة العربية بجهد محترم في نشر ألفاظ الحضارة وجعل العربية لغة للعلوم الحديثة...

إن العناية باللغة العربية جزء حقيقي من عمل الإعلام الإسلامي.